جعفر مدرس صادقي



المستنقع



ترجمها عن الفارسية
غسان حمدان

منشورات الجمل

رواية

جعفر مدرس صادقي

المستنقع

رواية

ترجمها عن الفارسية
غسان حمدان

منشورات الجمل

جعفر مدرس صادقي: المستنقع

جعفر مدرس صادقي: المستنقع رواية،
ترجمها عن الفارسية غسان حمدان، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان
جعفر مدرس صادقي: گاوخونی ١٩٨٣

Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

(١)

كنا نسبح في نهر (زاينده) بأصفهان مع أبي وعدة شبان لا أذكر كم كان عددهم بالضبط ولا أعرف إلا واحداً منهم فقط - معلم السنة الرابعة الابتدائية كُلتشين. كانت السماء صافية ليلاً وقمر الليلة الرابعة عشر يشع. كنا نحن فقط في الماء ولم يكن هناك أحد غيرنا لا خارج الماء ولا داخله. كان «الثلاثة والثلاثون»[1] جسراً يبدو غير بعيد ومشعاً تحت ضوء القمر. كانت كل الأماكن مضيئة الأشجار على ضفاف النهر والأعمدة على طرف رصيف الشارع المقابل للنهر حتى إن شبح جبل الصفه العالي وقمته الحادة كانا واضحين من وراء الأشجار. كان الماء ساكناً وساخناً كأنه مسبح كبير. ولم يكن يعيبه شيء لأنه نهر زاينده. كنت واقفاً وكان الماء يصل إلى رقبتي. كنا جميعاً واقفين ننظر حولنا ونتحدث.

قال أبي: «أحبوا يا أولاد! كل هذا النهر لنا. أحبوا بقدر ما تستطيعون»! أشار كُلتشين الذي كان من سكان المنطقة إلى «الثلاثة والثلاثين» وقال لأبي: «أهذه المداخل لكم أيضاً»؟

ضحك الجميع إلا أنا وأبي فلم نضحك. لقد جرح ذلك شعور

---

(١) أو «سي وسه پل»، جسر تاريخي بني في عهد الصفويين في مدينة أصفهان، ويعد من أهم المعالم التاريخية في المدينة والبلاد. وسمي بهذا الاسم لبنائه على ثلاثة وثلاثين من الأعمدة.

أبي. وجرح شعوري أيضاً فقد كنت سمعت أن أسفل مداخل الجسر ليس مكاناً جيداً.

بعد ذلك غطس أبي في الماء وسبح تحته ومن ثم أخرج رأسه من الماء في مكان بعيد.

فصاح كُلتشين: «لا تبتعد كثيراً. ثمة دوامة هناك».

ابتسم أبي وقال: «لا تقلق. أنا أعرف كل أماكن النهر مثلما أعرف راحة يدي». ومن ثم غطس في الماء ثانية.

بقيت أنتظر حتى يخرج رأسه من مكان ما في الماء لكنه لم يفعل. ظننت أنه قد يكون ابتعد كثيراً لأنني كنت أعرف أن لديه نفساً طويلاً. أو أنه كان يريد اللعب فيخرج رأسه من مكان آخر. درت حول نفسي وألقيت نظرة لكن لم يكن له أثر هناك. رأيت أن الشبان لم يكونوا مبالين. كانوا يتحدثون وأحياناً يرشون بعضهم بعضاً بالماء ويضحكون.

كنت متردداً أن أظهر قلقي أو لا. كنت خائفاً أن أصرخ فيضحك علي الجميع لأنه لم يكن يناسب أبي أن يغرق. في نفس الوقت رأيت شخصاً يقف عند ضفة الماء ويلوح بيديه ويصيح ويصرخ محاولاً قول شيء ما. فاقتربت. كانت أمي. لكن كان أمراً عجيباً أنها كانت بدون عباءتها وترتدي سروالاً فضفاضاً للنوم وشعرها أشعث. لم أرها يوماً تخرج من البيت بدون عباءتها. كان واضحاً أنها قفزت من نومها للتو وأتت من فراشها إلى هنا مباشرة. ذهبت إلى ضفة النهر ورأيتها تقول: «هل أتيتم مجدداً إلى الماء؟ في الصباح ماء وفي الليل ماء وفي كل وقت ماء»!

(٢)

كان جسدي وقدماي مبللين تماماً. في البداية ظننت أنني بللت فراشي. لأنني كنت في طفولتي أبلل فراشي دائماً عندما أحلم بالماء.

أما الآن فقد مضى وقت طويل على الطفولة ـ أصبح عمري أربعاً وعشرين سنة ـ ولم أكن قد بللت نفسي منذ مدة طويلة. وبعد مضي سنوات عدة عندما لم أعد أبلل نفسي كنت كلما رأيت حلماً عن الماء أرتعد خوفاً وأحاول في نفس اللحظة أن أستيقظ من الحلم أينما كنت نائماً فكنت أضرب بقدمي على الأرض وأقفز إلى الأعلى والأسفل لأستيقظ وعندما أستيقظ كنت أجد أنه لم يبق شيء لأبلل نفسي به وعلي النهوض لأذهب إلى الحمام.

مضت على خير، كنت أتعرق فقط. لم أذكر هل أني ضربت بقدمي على الأرض في الماء ـ ماء الحلم ـ أم قفزت إلى الأعلى والأسفل بسبب حرارة المياه. عندما كنت أضرب بقدمي على الأرض من الخوف كان هنالك بلل وبرد. كان الخوف يصيبني من هذا البرد ولكن لم يكن هنالك أي أثر للبرد أو البلل في ماء هذا الحلم. كانت برودة هذا الماء وحرارته مناسبة لجسدي تماماً. لم أكن أحس به ربما استطعت أن أعرف أنه ماء بسبب انعكاس القمر أو الجسر عليه أو بسبب لونه وشكله. بالمناسبة، هل كانت صورة القمر منعكسة عليه؟ لم أكن أذكر. ماذا أيضاً؟ ماذا كان شكله؟ ولونه؟ حتى صرت أنسى ماذا كنا نفعل في الماء. كان يجب أن أسجل هذا

الحلم. ما كان يجب أن أسمح لنفسي بأن أنساه.

بدأت أرتعش من البرد. كنت أتصبب عرقاً. هذا البلل بالذات هو ما ساعدني لأهم وأنهض من فراشي. مررت بحذر من بين الفرشات التي كانت ممدودة على الأرض حتى لا أدوس على أحد، ووصلت إلى المطبخ وأشعلت الضوء. وجدت ورقة وقلماً على نور مصباح المطبخ فوق طاولة خشايار الشاعر الذي كان يسكن معنا وينام على الفراش أسفل الطاولة. دخلت المطبخ وأغلقت الباب وجلست إلى جانب النافذة على كرسي بولندي بارد ودونت بسرعة الحلم الذي كنت قد رأيته.

(٣)

كانت شقتنا عبارة عن غرفة واحدة لا أكثر. حين تفتح الباب تدخل إلى غرفة كبيرة كانت البهو وغرفة الضيوف وغرفة العمل والنوم والجلوس وكان هناك مطبخ صغير ملتصق بتلك الغرفة. كانت في إحدى زاويا الغرفة طاولة كتابة ومكتبة صغيرة لكتب خشايار ـ الذي كان يعتبر نفسه شاعراً ـ وفي الزاوية الثانية مكان الفرشات وفي زاوية أخرى خزانة الملابس التي كانت مليئة بملابس حميد فقط. لم يكن لدينا أنا وخشايار ملابس كثيرة ولم نكن نهتم بأنفسنا كثيراً لأن خشايار كان شاعراً وكنت أنا أفقر منهم جميعاً وأمضيت سنة كاملة عاطلاً عن العمل. كان حميد يرتدي كل يوم لباساً جديداً ونظيفاً ويضع عطراً ويحلق ذقنه لأنه كان يريد أن يجد زوجة ويعتبر نفسه متزوجاً من الآن. ولكنه لم يكن يجد شقة للإيجار وحتى وإن وجد فلم يكن يستطيع أن يأخذ شقة منفصلة لأن الإيجار كان مرتفعاً على راتب الموظف (هو وخشايار كانا موظفين) لينتقل مع زوجته إليها. فكانا يعيشان معنا في هذه الغرفة. خشايار كان شاعراً مثل كل الشعراء شعره طويل وله شاربان طويلان يغطيان شفتيه كان يقول إنه تزوج من الشعر وإنه كان كما يقول زوج الشعر. كنت أنا الوحيد الأعزب في البيت. في حين أنه كان في الظاهر منزل رجل أعزب. وعندما كنا نبحث عن بيت كان الجميع يقولون لنا، لا نؤجر لأعزب وفي النهاية عندما وجدنا هذا البيت بصعوبة وأجروه لنا كارهين وكانت العائلات المتزوجة التي تجاورنا تنظر إلينا عابسة ظناً منها

أننا عازبون. وبما أننا كنا نقسم الإيجار على ثلاثة فلم نكن ندفع الكثير ولكن المكان كان ضيقاً جداً. فعندما كان يتغيب أحد حتى الليل أو يسافر كان الآخرون يفرحون لأن المكان يصبح أوسع للتحرك براحة. لسوء حظي كان الاثنان يبيتان في البيت ليلاً ولم يكونا يسافران إلى أي مكان. ومع أن عائلة حميد كانت تسكن في أصفهان فإنه كان يزورهم من السنة إلى السنة لأنه كان مشغولاً بتعلم طريقة التعامل مع زوجته. أما عائلة خشايار فكانوا يسكنون في طهران ولكنه التجأ إلينا لينشد الشعر فقط. لقد أمضيت معظم هذه السنة ـ من أولها حتى الخريف ـ في أصفهان ولم أكن قد دفعت جزئي من الإيجار حتى الآن. ولكني كنت ما زلت أعد هذا المكان بيتي. (كنت قد وعدت الأصحاب أنني سأجد عملاً قريباً وعندها سأبدأ بتسديد ديوني تدريجياً) لأنني كنت أريد أن أبقى في طهران بأي ثمن وكنت أعرف أن لا أحد سيعطيني جحراً آخر في هذه المدينة.

في تلك الليلة عندما رأيت ذلك الحلم كان في أواسط شهر أيلول وكان قد بقي على ذكرى وفاة أبي السنوية أسبوع واحد فقط.

منذ السنة الماضية وحتى تلك الليلة رأيت أبي في حلمي مرات ومرات سواء في أصفهان أو طهران. ولكنني لم أتذكر ما رأيته إلا مرة أو مرتين. كنت أذكر كل الأحلام التي كانت تراودني عندما أستيقظ صباحاً أو أفزع من النوم ليلاً. لكنني كنت أنساه إن نمت أثناء النهار مرة أخرى كنت أعلم أنني أرى أبي في الحلم فقط. مرت فترة وأنا أريد أن أدون هذه الأحلام لكنني تكاسلت ولم أفعل. كنت أريد أن أعرف ما نوع الأحلام التي تراودني ولماذا لم أكن أستطيع أن أرتاح من شر ذكراه التي كانت تؤذيني بشدة.

عندما كنت أكتب ما بقي في ذاكرتي من الحلم وأمر بما كتبته مرات عدة تذكرت أشياء عدة وتمنيت أن أكتبها. مشيت بحيطة حتى لا أوقظ أحداً وجلبت ورقة من الغرفة مجدداً وجلست على الكرسي البولندي ـ الذي كان قد أصبح ساخناً ـ وبدأت بالكتابة. عكر المصباح المضاء وحضوري المزعج هدوء ليل صراصير المطبخ. في البداية أخذت تجري في أنحاء المكان هنا وهناك. ولكن فيما بعد صعدت على قدمي وكأنها تقول لي إن جلست في زاوية مثل أطفال البشر ولم أسحقها فإنها لن تعترض على وجودي. فهمت ما أرادت أن تقوله وتركتها تصعد إلى الأعلى ولم أتدخل في شأنها.

(٤)

أول شيء تذكرته كان شيئاً ربما حدث منذ عشر سنوات مضت. كان صباح باكراً وكنت ذاهباً مع أبي إلى ضفة الماء كنا نذهب في الصباح الباكر بهدف الاستحمام مرات عدة في الأسبوع وبدل الاستحمام كنا نذهب إلى ضفة الماء كان أبي يحب السباحة في النهر في الصباح الباكر. كان هذا العمل يسعده كان دائماً يقرأ في الطريق إلى ضفة النهر شعراً لا أعرف إن ألفه هو أم شخص آخر:

«أريد أن أترك المخدرات،

وأذهب إلى النهر في الصباح الباكر لأمارس الرياضة».

ربما كان أبي مدمن مخدرات في وقت ما ويقرأ هذا الشعر من ذلك الوقت لكنني لم أره يتعاطى مخدرات قط. كان يدخن السجائر ويحتسي الخمر فقط. وكان أحياناً يقول نادي بدلاً من نهر لكنه كان يقول نهراً في أغلب الأوقات وربما يكون أصل هذا الشعر النادي الرياضي ولأنه كان ذاهباً باتجاه النهر كان يقول نهراً بدلاً من نادي.

لم تكن أمي تعرف أننا كنا نذهب إلى النهر بدلاً من الحمام. لم يكن يعجبها أن نسبح ـ أي أبي ـ في النهر لأنها كانت تقول إن هذا من عمل العراة. أذكر مرة أنهما كانا يتجادلان بشدة فاستخدمت أمي كلمة العراة بالذات. كانت تريد أن تقول أنه لا يليق برجل مهم كان يوماً ما أفضل خياط في المدينة مثل أبي أن يختلط بأشخاص بلا شأن. ويذهب ليسبح في النهر. انتهى هذا الحديث لصالح أمي

ووعدها أبي ألا يذهب مرة أخرى. كانت أمي تقول أيضاً إن هذه السباحة ضارة بصحته. كان جسد أبي صغيراً ونحيفاً لكنه كان مثل الأسد يسبح في المياه المتجمدة صباحاً من دون أن يتأثر. لم تكن أمي قد رأته يسبح أبداً. عندما كان يخرج من الماء لم يكن يرتجف أو يستعجل ليجفف نفسه. كان يزأر مثل أسد أصلع عظام صدره بارزة بشكل مقزز من تحت جلده الأبيض. كان يحرك يديه إلى الأعلى والأسفل يدور ويمارس الضغط ورياضة إيران القديمة. وبما أن أمي لم تكن قد رأت هذه الحركات كانت تقول: «إن رآك أحد زبائنك في تلك الحالة فماذا سيقول»؟ لم تكن تعرف أنه في ذلك الوقت من الصباح لم يكن هناك أحد عند الماء ولم تكن تعرف أن أبي لم يعد لديه أولئك الزبائن الذين تظنهم ربما لم يقل لها أبي أما أنا فكنت أعرف أنه لم يعد لديه أولئك الزبائن الذين تتخيلهم.

كنت قد سمعت منذ طفولتي أن أبي كان أفضل خياط في المدينة ولكن متى؟ لم أكن أعرف، ربما عندما تزوجته أمي، وكان ذلك بسبب زبائنه، ولأنه كان أفضل خياط في المدينة وليس لشخصه، لأن أبي لم يكن يملك شيئاً يعجب أمي، كانت تكره كل شيء يتعلق به، ومن الغريب أنها تزوجت من إنسان كهذا. لم أسألهما أبداً كيف تعرفا على بعضهما (والآن تأخرت على طرح مثل هذا السؤال) ولكنني أظن أن أمي أو أحد أفراد عائلتها كانوا من زبائنه (لأنني لا أعرف إن كان أبي يخيط ثياباً نسائية في يوم من الأيام). كانت أمي تعتبر نفسها تنتمي إلى عائلة مشهورة في المدينة، كانت عائلتها إحدى تلك العائلات العريقة التي تعيش في بيت كبير على شكل مثمن له قسم داخلي وخارجي وخمسة أو ثلاثة أبواب، أصبح مهدماً الآن وتقاسمه الورثة، كان الجميع يعيشون مع بعضهم وكانت المنطقة تسمى باسمهم (وحتى الآن تسمى باسمهم) في ذلك الوقت

لم تكن هنالك سيارات، وكانوا هم الوحيدون في كل المنطقة الذين يملكون حماراً يتنقلون به هنا وهناك (فيما يتعلق بالجزء الأخير كان هذا ما قالته أمي).

كان كلاهما مسناً عندما تزوجا. كان أبي أكبر منها وكانت أمي سمينة ودائماً مريضة لأنها كانت دائماً مغتاظة من أبي. لم تحمل أمي بطفل بعدي وكنت قد سمعت من عمتي أنها ماتت من الغم لأنها لم تستطع أن تحمل بطفل آخر. لم أر يوماً أحداً من أخوالي أو خالتي أو أياً من أفراد عائلة أمي (لأنهم لم يعتبرونا ـ أي أنا وأبي ـ من بني البشر لكي يسألوا عنا) ولكنني سمعت أيضاً أنها ماتت من الغم بسبب أبي. وأياً كان الأمر فالجميع متفقون على أنها ماتت من الغم.

ولكنها ماتت من الغم بلا فائدة لأن أبي كان يتنازل دائماً وكان يراعيها كثيراً (في حين أنها لم تكن تراعيه أبداً).

كان أبي في بعض الليالي يذهب مع رفاقه إلى ضفة النهر فيجلسون تحت ضوء القمر أو إن لم يكن موجوداً فتحت مصباح الشارع الخافت يمضي وقته في الحب والاستمتاع والغناء، وعندما كان يعود إلى البيت في آخر الليل كان يتظاهر بأنه سكران ويأخذ بالصياح في الطريق. وهل يصح السكر من دون الضوضاء؟ ربما كان ذلك يصح بالنسبة للآخرين أما بالنسبة لأبي فلم يكن ذلك مقبولاً فهو لم يكن يعتبر جولات الليل من دون الضوضاء كاملة. لكن المسكين كان بمجرد أن يصل إلى البيت كان يسكت ويضع رأسه على الأرض وينام مثل الحمار حتى الصباح من التعب وعندها كان يحين دور صياح أمي. لم يكن هنالك صياح أشد ألماً وقسوة من صياح النساء. كانت تقول ماذا سيحدث إن رآك أحد جيران زبائنك بهذه الحالة؟ مسكينة ماتت غماً بسبب هؤلاء الزبائن الخياليين.

مرت فترة لم يكن هنالك إلّا القليل من الزبائن أو على الأقل كان يأتي زبون واحد ميسور ويوصي على معطف وسروال وصدرية لم يعد هنالك الكثير من الناس ممن يرتدون المعاطف كان أغلبهم يوصي على سروال واحد أو يحضر ملابس للإصلاح. في البداية لم يكن أبي يقبل أن يصلح الثياب ولكن عندما ضاق رزقه اضطر أن يصلحها. لم يكن يخبر أمي أن الحال ضيقة، لم يكن يخبرها بأي شيء أصلاً، وبذلك لم تكن تعلم بشيء على الإطلاق. لم أرهما قط يتحدثان مع بعضهما مثل أناس عاديين، كانا إما يتقوقعان في زاوية صامتين بلا حراك كأنهما يقاطعان بعضهما، أو كانا يتجادلان ويصرخان في وجهي بعضهما. ولذلك كنت أقول لكليهما يا للمسكينين. كنت أقولها لأبي في البداية لأنه كان يراعي فقط ومن ثم لأمي لأنها لم تكن تعرف إلا التذمر والصياح والجدل. كان أبي يريد أن يسب كل شيء وينتهي مثلاً عندما كان يبدأ الشجار على موضوع عدم الذهاب للسباحة في النهر صباحاً. كان أبي يستسلم ويقول: «حسناً، لن أذهب للسباحة بعد الآن. أهذا أفضل»؟ ولكن فيما بعد كان يتحجج بالذهاب إلى الحمام للخروج من المنزل في الصباح الباكر ويذهب إلى ضفة الماء. أما أنا فلم أكن أسبح، كنت أقف إلى جانب ثياب أبي وأتفرج عليه ربما لهذا كان أبي يصطحبني معه. ليس من أجل أن أقف إلى جانب ثيابه لكي لا يأخذها أحد حيث أنه لم يكن هنالك أحد عند ضفة النهر ولكن لأتفرج عليه. لكنني كنت أذهب مع أبي وليس هو من كان يصطحبني أنا الذي كنت أريد أن أتفرج عليه إن كان هو يريد فأنا كنت أريد أكثر منه. مع أنه كان من الصعب علي أن أستيقظ عند الفجر لأذهب معه. وعند العودة كنت أنا أيضاً أبلل رأسي حتى تظن أمي أننا ذهبنا للاستحمام.

(٥)

لكنني لم أتذكر تلك الأشياء في تلك الليلة بعد أن دونت ذلك الحلم الذي كنت قد رأيته. تذكرت صباحاً خريفياً عندما كنت في الثانية أو الثالثة عشر من عمري ـ كنت في السنة الابتدائية الأخيرة ـ وكنت ذاهباً مع أبي إلى ضفة النهر. كنا قد قفزنا للتو من فوق أعمدة حاجز فيضان الشارع المقابل للنهر واتجهنا إلى النهر عندما رأينا شخصاً عند ضفة الماء متجهاً نحونا يحمل صرةً بيده. بدا لنا من بعيد أنه شاب عريض المنكبين. وعندما اقترب قال له أبي صباح الخير وعندها عرفته: كان السيد كُلتشين أستاذنا في الصف الرابع الابتدائي. لم يكن أبي يعرفه لكنه أعجبه لأنه كان يبدو شاباً رياضياً يستيقظ باكراً وكان واضحاً من شعره المبلل وشفتيه الزرقاوين أنه كان يسبح، فقال له صباح الخير. أنا أيضاً قلت له: «مرحباً أستاذ كُلتشين».

نظر أبي وأستاذ كُلتشين إلي بتعجب.

سأل أبي: «هل تعرف هذا السيد»؟

فأجبت: «كان أستاذي في الصف الرابع».

ابتسم كُلتشين وأخفض رأسه وسأل: «ما اسمك يا ولد»؟

فقلت له اسمي وكنيتي.

فهز رأسه وصافحني وقال: «سررت بالتعرف إليك».

ثم ألقى نظرة على صرتنا وسأل أبي إن كان يريد أن يسبح؟

فأجابه أبي بـ نعم.

فقال له كُلتشين إن هذا المكان جيد جداً للسباحة لأنه جرب كل أماكن النهر، واليوم كان أول مرة يأتي فيها إلى هنا واكتشف أن هذا المكان أحد أفضل أماكن النهر.

قال له أبي أنه يأتي إلى هنا دائماً.

لا أذكر ماذا قال كُلتشين. ربما قال إنه يجرب كل يوم مكاناً جديداً لأننا لم نره بعد ذلك هناك، وحسب قوله إنه كان أحد أفضل أماكن النهر.

وعندما أراد أن يغادر صافح أبي فقال له أبي: «بالتوفيق يا بطل»!

ثم سألني: «أحقاً كان هذا الأحمق أستاذك»؟

أجبت: «بلى».

فقال: «لا يليق به».

فعلاً لم يكن يليق به. كان يليق به أن يكون رياضياً أو بطلاً. عندما كنت طالبه، كان يبقى في الصف عندما يرن الجرس بدلاً من الذهاب إلى مكتبه ليحتسي الشاي مثل الأساتذة الآخرين يكاسر الطلاب المتحلقين حول طاولته أو كان يتحدث عن نفسه وبطولاته أثناء الصف. كانت هذه إحدى القصص التي يحكيها: عندما كان الجسر الفولاذي قد بني حديثاً، كان ماء النهر ما يزال يمر تحت الجسر في قناة ضيقة لأن أساسات الجسر لم تكن قد اكتملت. تراهن هو وأصدقاؤه على أن يقفز من أعلى الجسر إلى القناة. كان عمق القناة لا يقل عن ثمانية أمتار والماء ـ الذي كان كل ماء النهر ـ يجري خلالها باندفاع شديد. كانت القناة ضيقة والجسر عالياً

لدرجة أن القيام بمثل هذا الأمر كان خطراً فإن غطس شخص برأسه واصطدم رأسه بجدران القناة الإسمنتية فإن دماغه سيحشر في حلقه. لكن معلمنا قفز من ذلك الارتفاع ولم يصطدم بأي مكان ولم يغرق لأنه كان بطلاً كبيراً ليس له مثيل في المدينة كلها. وكان يتحدث كيف أنه أنقذ حياة أشخاص كادوا يغرقون في النهر مرات عدة وكم مرة علق في دوامات النهر وتراهن مع أصدقائه أن يدخل الدوامة ويخرج من الطرف الآخر كان يفعل كل تلك الأمور. وكان هو الوحيد الذي ينجو بعد جميع هذه الأعمال.

في ذلك اليوم منذ أن رأيته عند ضفة النهر وإلى أن عدنا إلى المنزل وتناولنا الفطور وذهبت إلى المدرسة وحتى في الصف كنت أفكر فيما إن رآني مرة أخرى ماذا سيقول. كنت أقول لنفسي من المؤكد أن أول شيء سيسأله إن كنت أنزل في الماء مع أبي أم لا. وإن سأل ذلك فسأقول بالطبع أنزل كان واضحاً أن شعري يجب أن يجف إلى أن أصل إلى المدرسة وكذلك شعره. كان الشيء الوحيد الذي يثبت نزولي في الماء أنه رآني صباح ذلك اليوم نفسه عند ضفة الماء مع أبي الذي من الواضح أنه يذهب للسباحة. عندما رن جرس الفسحة الأولى ذهبت بسرعة إلى الصف الرابع وانتظرت عند الباب لأرى إن كان سيخرج أم لا. خرج معظم الطلاب من الصف وخرج هو مع الطلاب المحيطين به. تقدمت وصحت بصوت عال ليصل إلى سمعه بين ضجيج الطلاب: «مرحباً».

كان صوتي مرتفعاً لدرجة أنه سمعني والتفت ونظر إلى بإمعان ثم هز رأسه وابتسم لي ابتسامة بلا معنى مثل تلك الابتسامة التي ابتسمها لي عند ضفة الماء. لم يعرفني في الصباح ولا حينها.

(٦)

في ليلة اليوم التالي بعد أن نام الأصحاب تناولت قلماً وورقة وذهبت إلى المطبخ. كان من الصعوبة علي أن أشعل الضوء فعندها ينعكس الضوء من الزجاج أعلى الباب ويضيء الغرفة، ومن المحتمل أن يوقظ الأولاد، الأمر الذي كان يقلقني. لم أكن أريد أن يراني حميد وخشايار وأنا أكتب. لأنهم لم يروا ذلك من قبل ومن الممكن أن يسخروا مني. مع أن ذلك لم يكن مضحكاً على الإطلاق. أنا نفسي لم أكن أضحك على خشايار عندما أراه يكتب شيئاً وكنت أحاول أن لا أثير جلبة. لكن حميد كان عكس ذلك. كان كلما تواجد في البيت ورأى خشايار يكتب أو يقرأ شعراً كان يضايقه ويثير ضجة ولا يتركه وشأنه ليعمل. وكان أحياناً يتناقش معه. كان نقاشهما مضحكاً ولكن لم يكن يزعجني أن استمع إليه. رغم غباء حميد كان أحياناً يتفوه بكلام ذي معنى ولكنه في الغالب كان يزعجه ويقول أشياء ليؤذيه. فكان مثلاً يعلق عليه لماذا كتبت في شعرك ديك وليس بطة وإن كتبت بطة فما الفرق. أو لماذا كتبت يصيح ولم تكتب يبطبط. وكان خشايار يجيبه لأنني أردت ذلك لأنه يصيح ولا يبطبط لأنه ديك وليس بطة. كان حميد يصر على الجدال ويقول كلا، أنا متأكد أنها بطة. وكان خشايار يقول له من أنت حتى تكون متأكداً أو لا. ويقول له حميد: «ما علاقتك أنت بمن أكون. من أنت»؟

وكان خشايار يضرب على صدره ويقول: «أنا شاعر».

«من قال لك أنك شاعر»؟

«أنا».

«حسناً إذاً. أنا شاعر أيضاً».

«أين شعرك»؟

«أنا لا أكتب شعراً».

«إن الشاعر الذي لا يكتب شعراً ليس بشاعر».

«والشخص الذي ليس شاعراً ويكتب شعراً نفس الشيء».

«من قال أنني لست شاعراً»؟

«أنا أقول».

«ومن أنت»؟

«أنا شاعر لا يكتب شعراً».

«من الأفضل أن لا تكتب»!

«وأنت من الأفضل أن تعترف أن ما تكتبه ترهات وليس شعراً».

«أنا متأكد أنه شعر».

«أنا متأكد أن الشخص الذي يكتب ديكاً بدلاً من بطة ويصيح بدلاً من يبطبط يكتب ترهات وليس شعراً».

لحسن الحظ أن حميد قل ما كان يتواجد في البيت لأنه كان يبحث عن زوجته المستقبلية تقريباً طوال اليوم ويعود إلى المنزل في المساء فقط. أما أنا فكنت أغلب الوقت في البيت. ولأنني لم أكن أحب الجدل كان خشايار أحياناً يقرأ لي أشعاره. بالطبع لم أكن

أفهم شيئاً من أشعاره. كان بعض أشعاره يعجبني والبعض الآخر لا. ولكنني لم أكن أعرف لماذا كان يعجبني ولماذا لا. بالإضافة إلى أن شرح خشايار لم يكن يوضح شيئاً. لكنني لم أكن أظهر ذلك.

لأنه من ناحية كانت ثقته بأن ما يقرؤه شعر وأنه شاعر تعجبني أكثر من شعره. لم ينشر خشايار أياً من أشعاره حتى الآن، مع أنه كان ينشد الكثير من الأشعار. لكنه كان ينوي أن ينشر منظومته التي لم ينهها حتى الآن، وكان ما يزال يعمل عليها قبل أي شعر آخر. وحسب قوله كان ذلك عملاً طموحاً وعظيماً ومن المحتمل أن يطول عدة سنين وأن مصيره متعلق به. إن استطاع أن ينهيه بالطريقة التي يريدها هو. فبرأيه سيصبح إنساناً وإلا فسيكون شاعراً مثل غيره من الشعراء. كان ينوي أن يشمل كل تاريخ إيران وثقافتها وحتى جغرافيتها ـ كل الجبال والأنهار والطرقات والصحارى ـ في هذه المنظومة. كان موضوع هذه المنظومة ـ حسب قوله ـ البحث عن شيء موجود في الماء والتراب والهواء الذي نتنفسه وعلى مر تاريخ إيران نجا من جميع المصائب التي أصابت البلاد ووصل إلينا لنوصله نحن إلى من يأتي بعدنا، ولكنه هو نفسه لم يكن يعرف ما ذلك الشيء. كان يقول أنه يعرف ما هو لكنه لم يكن يستطيع أن يعرفه بعدة كلمات أو جمل أو حتى بقصيدة أو قصيدتين، لذلك كان يكتب منظومة بذلك الحجم. كانت كل المنظومة من أجل ذلك الشيء. كان يقول لي إن كنت تريد أن تفهم ما هو ذلك الشيء فعليك أن تقرأ المنظومة بأكملها.

(٧)

لم يمت أبي غرقاً ـ لقد مات وهو يعمل على طاولته في دكان الخياطة. كان قد مضت على موت أمي غماً سنة ونصف، وأصبح يعيش وحيداً، لكن عمتي كانت تزوره وتهتم به. مرت فترة كانت تقول بأنه لا يجب أن يذهب إلى العمل بعد الآن لأنه أصبح مريضاً وخائر القوى إلى درجة يصعب عليه فيها المشي. على الرغم من إصرار عمتي على ألا يذهب إلى العمل ويبقى في بيتها مدة حتى يتحسن. لم يوافق أبي. لم تكن عمتي تستطيع أن تترك بيتها وحياتها وتذهب إلى أبي وتعتني به هناك. (مع أنها ندمت لأنها لم تفعل ذلك من قبل عندما مات أبي). كان أبي رجلاً عنيداً. كانت عمتي تستخدم هذه الكلمات ذاتها وتقول بأن أمي ماتت من الغم بسبب عناده. لم يذهب أبي إلى بيتها ولم يتوقف عن الذهاب للعمل حتى اللحظة الأخيرة، كان قد قال لعمتي إن لم أذهب إلى العمل سأموت من الغم مثل تلك المسكينة. كان أبي يتقبل أن أمي ماتت من الغم، ولكنه لم يكن يتقبل أنها ماتت من الغم بسببه. كان يقول إنها (أي أمي) قتلت نفسها من الغم بيدها.

مات أبي ويداه ورأسه على طاولة الخياطة وكان لا يزال ممسكاً بالمقص وقدماه على الأرض. كان جسده ضعيفاً وخفيفاً إلى درجة أنه لم يسحبه ويسقطه على الأرض. لم يعرف أحد أنه مات إلّا بعد مرور ساعة أو ساعتين لأنه لم يكن لديه زبائن ولم يكن أحد يأتي

إليه. عندما حل الظهر أغلق أصحاب الدكاكين المحيطة دكاكينهم ليذهبوا لتناول الغداء، بقي دكانه مفتوحاً، وعندما عادوا من الغداء كان باب دكانه ما يزال مفتوحاً. لم يكن أبي يتناول غداءه في الدكان لأنه لم يكن هنالك أحد، ولم يكن يعرف كيف يعد طعامه بنفسه، فقلق أحد أصحاب الدكاكين المجاورة ودخل فرآه دون حراك على طاولته وبقي هكذا.

في ذلك الوقت كنت أعمل في محل لبيع الكتب. كان قد مضت على حصولي على هذا العمل ثلاثة أو أربعة أشهر. اتصلوا من أصفهان هاتفياً بحميد وأخبروه لأنه لم يكن هنالك هاتف في بيتنا ولم يكن أحد يعرف أين أعمل (لأنني كنت إما بلا عمل أو أعمل كل فترة في مكان مختلف) حين كانوا يريدونني لشيء هام في أصفهان كانوا يتصلون بمديرية حميد. أتى حميد معي إلى أصفهان لأنه كان يعرف أبي أيضاً. (عندما كنا أطفالاً كنا جيران وكلما كان يذهب إلى أصفهان كان يزوره) وإلى أن وصلنا إلى أصفهان كان زوج عمتي وابنها قد أنجزا جميع أعمال الكفن والدفن والعزاء، وكان علي فقط أن أقف عند قبر أبي عند الباب وأظهر الحزن على وجهي وأسلم على أولئك الذين يدخلون، وأودعهم وأصافح بعضهم وأشكرهم على الجهد الذي بذلوه وعلى حضورهم، كان هذا بحد ذاته عملاً صعباً. إن لم يحزن المرء على موت أبيه على الإطلاق فإنه سيتضايق من الطقوس التي يقوم بها وسيعتبرها حادثة كريهة.

كان أبي ضد هذا التقاليد كلها. كان قد طلب مرات عدة إن مات فلا يريد أن نقيم عزاء وأن لا نقوم بمثل هذه الخزعبلات. كان يقول إنه لم يشارك في عزاء قط وكان هذا صحيحاً حسب علمي، لأنني لم أره قط يشارك في أية مراسم. حتى أنه لم يقم مراسم عزاء لأمي. أقامت عائلة أمي لها عزاء طويلاً في مدرسة جهار باغ ولم يشارك

أبي فيه ولم يأت أحد من طرفنا إلا أنا وعمتي وزوج عمتي.

عاد حميد إلى طهران بعد العزاء، أما أنا فبقيت لأسبوع بسبب إصرار عمتي. خلال هذه الأيام حاولت عمتي وزوجها أن ينصحاني بأن الوقت قد حان لأترك حياة الضياع والتشرد وأنظم حياتي. فقلت لهما إنني بالصدفة وجدت عملاً جيداً في طهران منذ بضعة أشهر ولم أعد متشرداً، لكنهما كانا يقصدان أن آتي إلى أصفهان وأعمل في دكان أبي الذي أصبح الآن ملكاً لي. في الواقع لم أكن أفقه في الخياطة شيئاً، لكن كان من الممكن تغيير شكل الدكان والبدء بمهنة أخرى. كان موقع الدكان مناسباً جداً، كان يقع في أحد الشوارع المزدحمة وكان تعويض إخلائه كبيراً جداً.

كان الدكان هو الشيء الوحيد الذي يملكه أبي، أما البيت الذي كان يسكن فيه مع أمي، ومن ثم لوحده، ففي السنة والنصف الأخيرة كان مستأجراً. قمنا بنقل الأثاث البسيط الذي كان موجوداً فيه أثناء ذلك الأسبوع الذي بقيت فيه بأصفهان إلى بيت عمتي (بالطبع فإن عمتي أكدت لي أن هذا الأمر مؤقت إلى أن يتضح وضعي، ولكن الأثاث لم يكن ذا قيمة ولم أعرف من أين أتت بموضوع أن يتضح وضعي). سلمنا المنزل لصاحبه (الذي كان يريد بيته وكان قد تشاجر مع أبي منذ فترة وأنه يريد أن يطرده فكان فرحاً لموت أبي لدرجة أنه لم يستطيع أن يخفي ذلك). صحيح أن مبلغ الإيجار كان قد ازداد أضعافاً مضاعفة مقارنة بخمس وعشرين سنة مضت عندما استأجر أبي، ولم يعد المكان يناسب خياطاً كبيراً في السن بالكاد يمشي ولا يملك زبائن، وصحيح أنه كان وحده تقريباً في السنة والنصف الأخيرة، وكان يستطيع أن يعيش في بيت عمتي أو حتى في الدكان، لكنه كان يستأنس بذلك البيت. لأن ذلك البيت كان قريباً من النهر. وبما أنه في الفترة الأخيرة لم يعد يستطيع

الذهاب إلى الماء فقد بقي في ذلك المنزل من أجل النهر ولذلك لم يكن يستطيع أن يفارقه.

طوال تلك الأيام كنت في بيت عمتي، وكنت أذهب من مكان إلى مكان مع ابن عمي الذي لم أعد أراه إلا نادراً منذ أن ذهبت إلى طهران (منذ خمس سنوات) وابنة عمتي التي كنت أحبها منذ الطفولة، ومنذ أن كبرت وحتى قبل أن أذهب إلى طهران كانت تخجل مني.

هذه المرة لم تعد ابنة عمتي تخجل مني، ولذلك لم أعد مع حميد إلى طهران وبقيت لاستمع إلى نصائح عمتي وزوجها ـ مع أنني لم أكن أريد أن أطبق شيئاً ـ لأنني رأيت أن ابنة عمتي لم تعد تخجل مني وتتعامل معي بقرب بعكس ما كانت عليه في السابق، وأصبحت فتاة مختلفة تماماً (على الرغم من أنها كانت ما تزال ابنة عمتي الطيبة نفسها) كانت بمثل سني تقريباً (كان أخوها أكبر منها) وكنا نلعب مع بعض منذ الطفولة. الفتيات يكبرن بشكل أسرع من الصبية دائماً، وعندما أحست بأنها كبرت لم تعد تكترث بي. وأصبحت لا تعيرني اهتماماً وأصبحت لا أراها إلّا قليلاً وإن كنت أراها فكنت أراها من بعيد، أصبحت أحبها أكثر وأفكر بها أكثر. حتى عندما أتيت إلى طهران كنت أفكر بها وأرسلت إليها رسائل عدة لم ترد عليها. أما الآن فقد رأيت أنها تغيرت وصارت تتحدث معي ولم تعد تغطي وجهها مني (لأنها كانت تغطي وجهها أمام الغرباء في المنزل أيضاً) ولم تعد قلقة مني. عندما حان موعد عودتي إلى طهران جعلتها تعدني بأن تكتب لي.

(٨)

في صباح اليوم بعد مرور أسبوع وصلت إلى المكتبة متأخراً، كان مدير المكتبة والبائعون قد حضروا، وكان هنالك شخص آخر لم أره قبل الآن يقف خلف المنضدة، عندما رأيته ارتعدت فرائصي وذهبت وراء المنضدة بتردد وسلمت على الجميع، لم يعرني أحد انتباهه وردوا على سلامي بكراهية. أدركت ما حدث. وقبل أن يقول مدير المكتبة لأمين الصندوق: «أعط الرجل نقوده،» فهمت أنني طردت. كانت النقود التي أعطوني إياها ما كان لي في ذمتهم، جزء من راتبي على عملي منذ أول الشهر وحتى ذلك الأسبوع قبل أن أذهب إلى أصفهان.

قال مديري: «إذاً فأنت مصر على ترك هذا العمل»؟

فقلت: «من قال»؟

«أنت بنفسك قلت ذلك، ألم تكن معترضاً على راتبك»؟

«أجل كنت معترضاً لكنني لم أكن أريد أن أترك عملي».

«إذاً لماذا تركت وغادرت»؟

«لقد قلت أنني سأغادر ليومين أو ثلاثة ثم أعود».

«يومين وليس عشرة أيام، لقد غبت عشرة أيام».

«لكنني قلت أن لدي مشاغل»!

«أجل قلت، لكنك قلت أنك ستذهب يومين وتعود. بعد أن مضى هذان اليومان تأكدنا أنك قررت أن لا تعود ورجونا هذا السيد (وأشار إلى البائع الجديد) أن يأتي ويساعدنا. والآن قل لي ما المشاغل التي طرأت عليك حتى غبت كل هذه المدة؟ هل وجدت عملاً جديداً»؟

«توفي أبي فذهبت إلى أصفهان».

صعق المدير ونظر إلي من رأسي إلى أخمص قدمي كأنه أراد أن يرى إن كان يناسبني أن يكون أبي قد توفي أم لا. حتى البائعون استداروا ونظروا إلي.

قال المدير: «إذن فلماذا لم تقل حينها أن أباك توفي»؟

«ظننت أنه ليس ضرورياً».

فقال مديري: «بل كان ضرورياً جداً».

نهض من مكانه وأشار إلي لأذهب معه إلى آخر المحل حيث كان هنالك حمام وخزانة يحضرون فيها الشاي. كان المدير أحدب وكان يبدو أقصر عندما ينهض مما كان عليه قبل أن يجلس، لكنه كان ذكياً ونشيطاً فصب لي كأساً من الشاي بسرعة، ووضعها على رزمة الكتب المغلفة التي كانت قرب باب الخزانة. كان هو أقصر من رزمة الكتب، وكان مخفياً عن مرمى نظر البائعين تماماً. لكنه ألقى نظرة عليهم وسألني بصوت منخفض ـ كي لا يسمعه أحد ـ إن كان أبي توفي حقاً؟

فقلت طبعاً.

فسألني ثانية لِمَ لم أقل أنني سأغيب من أجل ذلك؟ لأنه لو كان يعلم أن أبي توفي فما كان سيهتم مهما غبت، وكان من المستحيل

أن يحضر أحداً مكاني. أما الآن، وبعد أن انتهى الأمر وأحضر الشاب، ولم يعد يصح أن يطرده الآن إن لم يخطئ أو يقصر في عمله ويتمكن من الإمساك به متلبساً، وإن حدث ذلك فسيطرده ويعلمني، عندها سأتمكن من العودة إلى عملي.

بينما كان يتحدث عن هذا، وفي غضون ذلك يسأل عن سبب موت أبي كنت أشرب الشاي. ثم ودعت الجميع ومن ضمنهم البائع الجديد وأخذت نقودي وخرجت.

كان مديري محقاً: كان يجب أن أقول له أن أبي توفي قبل أن أغادر. أما أنا فكنت قد قلت له أن لدي عملاً ليوم أو يومين ولن أستطيع أن آتي إلى عملي، وبعد أن طالت مدة غيابي كان محقاً بأن يقطع الأمل من عودتي. كنت قد تشاجرت معه منذ فترة لكي يزيد راتبي. كنا نبيع كتباً مدرسية، وكان عملنا كثيراً أغلب الأشهر التي عملت فيها هناك. لم تسمح لنا أعداد المشترين الكبيرة بأن نلتقط أنفاسنا للحظة واحدة. ظهرت هالات سوداء تحت عيوننا وكان الجميع يتحدث مع بعضهم، وكل زبون يريد أن يغادر بأسرع ما يمكن، ولم يكن أحد يفكر بالبائع المسكين الذي كان يعمل مثل الحمار من الصباح حتى المساء، وأحياناً حتى منتصف الليل براتب قليل (لكي نرتب الكتب الجديدة التي كانوا يحضرونها من المخازن فوق بعضها على شكل مجموعات من أجل أن نعدها للغد) كان علينا أن نجد الكتب المختلفة التي يطلبها كل زبون بسرعة، كنا نغلفها بسرعة ونحسب أسعار الكتب المختلفة بسرعة. كان احتمال الخطأ كبيراً. وكان المدير الأحدب يرفع رأسه من طرف المنضدة وسط الضجيج وينظر إلى حسابك ويا ويلك إن أخطأت. كان يسخر منك ويتوقف عن الثقة بحسابك، ويحسب بدلاً منك ويروح ويجيء بين قدميك ولا يدعك تعمل. من المؤكد أنه كان يريد أن يفعل

الشيء نفسه مع البائع الجديد. إن كان يريد أن يكشف خطأه فكان يستطيع ذلك بسهولة تامة ولاسيما من مبتدئ. أكتشف أخطائي مرات عدة مع أنني كنت أدقق كثيراً. في ذلك الوقت كان المحل مزدحماً، أما الآن فلم يعد كذلك. كانت فصول السنة الدراسية قد انتهت وأصبح البائعون متفرغين واحتمال الخطأ ضئيلاً. الآن أصبح المحل جيداً ـ ولم أعد موجوداً.

كان هذا خطئي أنني لم أقل أن أبي توفي. أهناك أحد يتوفي أبوه ولا يقول؟ أصبح وجه مديري عجيب الشكل عندما قلت إن أبي توفي! كأن شيئاً مهماً حدث. عندما يتوفى والد شخص ما يصبح مهماً بالنسبة للآخرين لو لم يمت أبي لم تكن ابنة عمتي ستعدني من البشر.

(٩)

وصلت رسالة ابنة عمتي إلي بعد ثلاثة أسابيع من عودتي إلى طهران، كانت قد كتبت لي أنها تحبني منذ الطفولة، ومنذ أن ذهبت إلى طهران وهي تفكر بي، لكن لم تسنح لها الفرصة أن تقول شيئاً عن هذا. وعندما أتيت إلى أصفهان كانت تتمنى أن تتحدث معي ولكن أخاها كان معنا أينما ذهبنا فلم تتح لها الفرصة. كما أنها لم تكن تعلم إن كنت أكنُّ لها أية مشاعر. ربما أنا لا أفكر في هذا الموضوع أساساً. أما الآن فقد تشجعت وكتبت ما كانت تجد صعوبة في قوله ورجتني إن كنت لا أحبها أن لا أذكر لأبيها وأمها أنها كتبت لي مثل هذه الرسالة وإن كنت أحبها فأن أقول لها بأسرع ما يمكن لتعرف ما عليها فعله.

أعجبتني صراحة وبساطة الرسالة كثيراً وقررت أن أرد على رسالتها. لكن لم يكن قد بقي إلا القليل على أربعينية أبي وإن أردت أن أذهب إلى أصفهان فسأصل أسرع من الرسالة كما أنني لم أكن أعرف إن كانت كتابة رسالة لابنة عمتي ستترك انطباعاً حسناً عند عمتي وزوجها بعد كل هذه الرسائل التي لم يرد عليها منذ عدة سنوات.

كنت متردداً حتى آخر لحظة هل أذهب إلى أصفهان أم لا. كان أبي ضد مراسم عزاء الميت فكيف بمراسم الأسبوع والأربعين، ولم أكن أود أن أتصرف خلافاً لرغبته ولاسيما أنه توفي الآن. لكنني

مضيت في طريقي من أجل ابنة عمتي، ولأنه لم يكن عندي عمل أيضاً، وطبعاً ذهبت إلى منزل عمتي وبقيت هناك ليلاً وعندما أتيحت لي الفرصة أبلغت ابنة عمتي أن رسالتها وصلت وأنني أحبها أيضاً.

سارت الأمور بأسرع مما تخيلت. قالت لي ابنة عمتي أن أفعل ما يحلو لي، لأن لديها خاطباً ووالداها موافقان ويريدان أن يقوما بتزويجها له. كانت معظم الفتيات اللاتي يردن أن يتزوجن يستخدمن هذه الطريقة ـ كنت أعلم بذلك. وعندما كنت أريد الزواج كنت أعلم هذا، ولكن مع هذا كله قمت بذلك: إذ بعد الذهاب إلى أصفهان بعد مراسم أربعينية أبي بأحد أو اثني عشر يوماً. طلبت يد ابنة عمتي من عمتي وزوجها. في البداية ترددا (لأنني كنت بلا عمل ولا أملك شيئاً) ثم وافقا على زواجنا بشرط أن أفتح الدكان وأبدأ العمل.

تزوجنا ليلة العيد من دون صخب (لأنه لم يكن قد مضى على موت والدي سبعون يوماً) وذهبنا في أول يوم للعيد إلى طهران في شهر العسل. كان حميد يذهب في العيد كل سنة إلى أصفهان وكذلك خشايار ليراعينا أمضى الأسبوع الأول من السنة عند أبيه وأمه مما أسعد عائلته. كما أننا أردنا أن نستمتع في الأيام الأولى من حياتنا وحدنا.

في البداية ظننت أن أسبوعاً واحداً غير كاف لنبقى وحدنا. ولكنني بدأت أشعر بالضجر في أول يومين وأردت أن نعود بأسرع ما يمكن. في أول يومين لم نبق في البيت كثيراً لأن زوجتي مثل جميع نساء القرى اللاتي يأتين إلى طهران كانت تريد أن تذهب للتسوق. وكان علي أن أذهب معها لأنها لم تكن تعرف أي مكان. ثم إن التنقل من محل إلى محل أفضل من الجلوس في البيت. مع أنه كان اليوم الثاني كنت أنا من سئم التنقل من محل إلى آخر وقلت

إنني لم أعد أريد الذهاب. فأمضينا اليوم الثالث وباقي الأيام حتى نهاية الأسبوع في البيت. كان طبخ زوجتي لذيذاً (كما أنها كانت تخيط بشكل جيد) وكان غداؤنا وعشاؤنا جاهزاً ولم تكن تتحدث كثيراً. أما أنا فكنت أفتش في هذه الأيام في كتب خشايار وأحاول أن أبدو سعيداً ومتفائلاً، لأنه مهما كان فهي أول فترة حياتنا، وإن لم يتفاءل المرء في شهر العسل فمتى يتفاءل؟ لكنني كنت أحب تلك الأيام التي كنت أبقى فيها وحيداً في البيت ولم يكن لدي غداء أو عشاء أكثر من تلك الأيام الأولى التي أصبح لدي فيها زوجة، وكان علي أن ابتسم وأتصنع الضحك وأمثل دور الإنسان السعيد.

كانت زوجتي امرأة كتومة، ومع أنني أحسست في الأيام الأولى أنني لست زوجاً صالحاً، إلا أنها لم تكن تبدي اهتماماً. كأنها قررت منذ اليوم الأول أن تتحمل كل مساوئي بأية طريقة. كانت زوجة طيبة. قبل زواجنا كنت أظن أنه لا توجد امرأة أجمل وأطيب منها. ولكن منذ اليوم الذي تزوجنا فيه رأيت أنها ليست بهذه الطيبة والجمال اللذين كنت أتخيلهما. كانت هناك نساء أكثر طيبة وجمالاً منها ولم يكن ملكي. ولكننا لم نتزوج بهذه السرعة لأنني كنت أظن أنها أطيب وأجمل نساء العالم، ولكن لأنني كنت أريد أن تكون ملكي منذ الطفولة، ومنذ أن أبدت عدم اكتراثها بي لم أعد أعتقد أنها ستصبح لي في يوم من الأيام. عندما رأيت أنها أصبحت ملكي بهذه السهولة. كيف أتمكن من رفض الزواج بها؟

كانت تعاني من صوت السيارات التي كانت تمر ليلاً ونهاراً أسفل نافذتنا، وتقول كيف تستطيع أن تعيش وسط هذا الضجيج؟ لم تقل لي اترك طهران. وتعال لنعيش في أصفهان. كانت تتضايق من الدخان والازدحام والضجيج في طهران فقط. لم تقل تعال لنفتح دكان الخياطة. كانت تقول: «هل ثيابي جميلة»؟

فكنت أقول لها: «أجل، جميلة جداً».

كانت تقول: «هل تستطيع أن تحزر بكم اشتريتها»؟

فأرد: «لا أدري».

فتقول: «خمن سعراً معيناً»!

فكنت أقول سعراً، سعراً مرتفعاً لأنني كنت أعلم أن هذا ما تريده.

عندها كانت تقول سعراً أدنى.

كنت أتعجب. لأنني كنت أعلم أن هذا ما تريده.

عندها كانت تقول إنه رخيص الثمن لأنها خاطته بنفسها.

وكنت أتعجب ثانية ـ أكثر من قبل. وأقول «هل أنت جادة»؟

كانت تقول إنها جادة.

عندها كنت أقول: «يا لك من خياطة بارعة»!

وهذا ما كانت تريده تماماً! وكل هذا الحديث كان من أجل ذلك لأنها لم تكن تريد أن تقول بصراحة تعال لنفتح دكان الخياطة سأعمل أنا هناك مكان أبيك ونخيط ثياباً نسائية بدلاً من الرجالية وعندها كم ستكون حياتنا حلوة.

(١٠)

كما كنت قد وعدت حمايَّ من قبل (عمتي وزوجها سابقاً) قررت أن أحسن الدكان، لكنني لم أكن أرغب بالعمل كثيراً. قام أخ زوجتي (ابن عمتي سابقاً) العاطل عن العمل بكل الأعمال، كان خبيراً بهذه الأمور ولديه معارف، فتمكن من تحسين وضع الدكان خلال بضعة أسابيع. في البداية كنا قد اتفقنا على أن يكون دكان خياطة، ولكننا اتفقنا بعد ذلك على أن يصبح محل خردوات. لم يعد دكان الخياطة ذا فائدة (لم يعد العديد من الناس يرغبون في الخياطين. مضت سنوات عدة منذ أن أراح الناس أنفسهم من هذا الهم: أصبح الناس يشترون ملابس جاهزة ويبيعون ملابس جاهزة) كما أن محل خردوات يترك المجال مفتوحاً للمرء. فاتفقنا على أن تخيط زوجتي ملابس نسائية ونبيعها. يمكن بيع أي شيء في محل خردوات. وسمينا المحل بناء على اقتراحي «نهر زاينده». وكنت قد اقترحت هذه التسمية إحياء لذكرى أبي. وقد بدا اسم المحل بلا مسمى بما أن مكان المحل كان بعيداً عن النهر.

كان المحل يذكرني بأبي قبل أن يصبح محل خردوات وبعد ذلك. لذلك كنت أسعى جاهداً أن لا أذهب إلى هناك كثيراً. قام أخ زوجتي بتغيير شكل الدكان بالكامل. حيث وضع طاولة زجاجية جديدة مكان طاولة أبي الخشبية المتآكلة وواجهة (لم تكن موجودة من قبل) ورفوف زجاجية عليها كراكيب وكراكيب أخرى تتدلى من

الباب والجدران وسقف الدكان ومرايا معلقة من كل جانب لتجعل الدكان يبدو أكبر كل ذلك أعطى للدكان منظراً جديداً. فأصبح دكاناً مختلفاً تماماً. ولكن على الرغم من هذه التفاصيل كان بالنسبة لي ما يزال دكان أبي الصغير. كان الباب والجدران يذكرني به وكانت رائحته منتشرة في أنحاء المكان سواء داخل الدكان أو خارجه. وكان هو أيضاً موجوداً في الدكان دائماً، ولم يكن ينقص فيه شيء إلّا طاولته القديمة الباهتة المتآكلة. كان أبي يضحك من قلبه على أخ زوجتي المبتدئ ذاك. كان رجلاً شديد المراعاة ـ سواء في حياته عندما كان يراعي أمي أو مماته حين كان يراعي عروسي ويقهقه.

افتتح (نهر زاينده) في أواخر شهر أيار. وكانت زوجتي تخيط ليلاً في البيت ونهاراً في الدكان. كان أخ زوجتي يجلس خلف الصندوق ويدور وراء الأغراض. كنت أحياناً أتفقدهم ولكن في أغلب الأحيان كنت أمشي في الشوارع التي كنت قد رأيتها منذ الطفولة وأصبحت مألوفة لي لدرجة أنها كانت تشعرني بالغثيان. كما أنه كان علينا أن نبحث عن بيت، لأننا منذ تزوجنا قالت حماتي أن نبقى في بيتهم (بيت عمتي سابقاً) مؤقتاً حتى إشعار آخر. كنت أنام هناك خلال تلك الأشهر التي أمضيتها في أصفهان. لكن بيتي الأصلي كان ما يزال ذلك الكوخ المشترك في طهران. لأن فراشي كان ما يزال هناك وطالما بقي فراشي هناك كان علي أن أدفع حصتي من أجرة المنزل. كنت قد فضلت أن يبقى فراشي هناك من دون أن أكون موجوداً وأدفع حصتي من الإيجار ليكون بيتي هناك لا بيت عمتي سابقاً ولا بيتاً آخر مشتركاً بيني وبين ابنة عمتي سابقاً.

عندما افتتح الدكان أصبح القليل من الناس يهتمون بي وكنت أتسكع من الصباح حتى المساء. كانت زوجتي تذكرني فقط أن الوقت قد حان لنستقل بمكان وحدنا (لم تكن تتذمر، مع أن هذا

غريب، إلا أنها لم تكن من النساء المتذمرات). ولأكون قد فعلت شيئاً ذهبت مرات عدة معها ومع أبيها للبحث عن بيت. لم يكن وضع السكن في أصفهان أفضل من طهران لأن أصفهان كانت قد بدأت تزدحم، ولم يعد بالإمكان إيجاد مكان للسكن بإيجار معقول مع مد الطرقات وتعمير المباني وتوسع المدينة. وكلما وجد خموي أو زوجتي مكاناً بإيجار معقول وأعجبهم لم يكن يعجبني ربما فهموا أنه لن يعجبني شيء فتوقفوا عن الذهاب معي للبحث عن بيوت. كنت أقول إنني سأجد مكاناً وأحياناً كنت فعلاً أرى بضعة أماكن أثناء فترة تسكعي اليومية متعمداً على أن لا تعجبني لأعود في الليل إلى زوجتي وأقول لها إنني رأيت شققاً ولكنها لا تصلح للسكن.

(١١)

كنت أتمنى أن أعود إلى طهران. ليس لأنني كنت لا أحب أصفهان. كنت أحب أصفهان أكثر من طهران ولكن أصفهان كانت تؤذيني. لم يكن هناك ما يربطني بطهران لم أكن أحبها. لكن كان هناك ما يربطني بأصفهان كنت أشعر أنها تؤذيني في كل مكان أضع قدمي فيه. كان شيئاً رأيته منذ طفولتي وبقي بنفس الشكل ومن ثم تحول إلى شيء آخر فكانت كل الأشياء في أصفهان واحداً من هذين الشيئين: الشوارع العريضة التي مدت بدلاً من الأزقة الضيقة السابقة كانت تثير حزني أكثر من الأزقة الضيقة، والأحياء القديمة التي لم تلمس. كان الوضع كذلك سابقاً كل مرة كنت أذهب فيها إلى أصفهان لرؤية أبي مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع. كنت أشعر بانقباض في قلبي. كنت أريد العودة بأسرع ما يمكن، كان أبي يصر على أن أبقى أكثر لبضعة أيام. كنت أتحجج. كنت أقول بأن لدي عملاً. لكن في الحقيقة لم يكن لدي عمل. فهم أبي وقال: «لم تعد ابني الذي أعرفه». كرر قوله هذا مرات عدة بحسرة شديدة كأنه كان يريد أن يقول إن هذه المدينة لم تعد كالسابق، وهذا الدكان لم يعد كالسابق، وهذه الحياة لم تعد كالسابق، وهؤلاء الناس، والهواء والأشجار والشوارع والأزقة ـ لم يعد شيء كالسابق ـ حتى الأحياء التي لم تسكن.

كان حينا أحد تلك الأحياء. بقي كما كان عليه. نفس الجدران

المائلة المبنية من الطين والقش، وعندما كنت أمر قربها كنت أتوقع أن تنهار، علي كانت ما تزال قائمة ومرة أخرى كنت أمر قربها من دون أن أتوقع أن يحدث شيء، كأن كل ما كان يفترض حصوله قد حصل، وكل جدار كان من المفترض انهياره قد انهار، وإن لم ينهر فلن ينهار أبداً.

فتح الباب وخرجت امرأة وبينما كنت أمرر نظري على الباب والجدران وقعت عيناي عليها. فلبثت وكان ذلك كافياً لأتذكرها حتى أنني تذكرت اسمها ونطقته بلا إرادة. استدارت ونظرت إلي بتعجب فتوقفت أنا أيضاً لتتذكرني. لكنها نظرت إلي ولم تقل شيئاً. كانت قد تبرجت كثيراً واهتمت بنفسها لكن تحت عينيها كان أسود وغائراً وخدودها بيضاء. وحاجباها رفيعين مثل خطين. كانت ما تزال نحيلة كالسابق لكنها كانت تبدو أنحف ولونها أكثر شحوباً. أصبحت الفتاة النحيلة الشاحبة امرأة بالغة. أغلقت الباب وتابعت سيرها.

ناديتها من خلفها فالتفتت. ذكرت اسمي وقلت لها: «ألم تذكريني»؟

قالت: «للأسف لا».

كانت تهم بالذهاب عندما قلت لها: «كان منزلنا هناك». وأشرت إلى باب بيتنا السابق.

ومرة أخرى لم تتذكر.

قلت: «أتذكرين عندما اغتبتني مرة أمام أمي»؟

بدأت تتذكر وسألت: «لماذا»؟

«لأنني كنت قد رششتك بالماء وبللتك».

فقالت: «آه»!

ثم نظرت إلي جيداً من رأسي حتى أخمص قدمي وقالت: «يا إلهي! أهذا أنت»؟

فقلت: «أجل هذا أنا».

«ماذا تفعل هنا؟ كنت تعيش في طهران؟ صحيح»؟

ثم عزتني بموت أبي.

وبعدها ضحكت وقالت: «لم ترشني بالماء. لقد رميتني في الماء».

كنا قد ذهبنا إلى ضفة النهر. أخذتها إلى الماء بإصرار شديد لأن الفتيات لم يكن يذهبن إلى الماء أبداً. رغم أن النهر كان قريباً جداً من حارتنا وكان يجب أن تجتاز الشارع فقط وتقفز من الحاجز الرملي كان الطريق يبدو طويلاً جداً بالنسبة لها. كانت تنوي أن تصطاد السمك. لم أكن قد اصطدت سمكاً من قبل (كنت أسبح أحياناً. لكنني كنت أمشي قرب ضفة الماء في أغلب الوقت وأتفرج على أولئك الذين يسبحون ويصطادون.) لذلك استعرت من حميد الذي كان جارنا صنارة صيد سمك لأخذها معي. عندما جلست عند ضفة النهر وغمرت قدميها بالماء حتى ركبتيها بانتظار سمكة خطر لي أن ادفعها في الماء. وهذا ما فعلته تماماً. فأخذت بالبكاء ورمت صنارة صيد السمك في الماء وغادرت راكضة بثياب مبللة. جرف الماء الصنارة وعندما عدت رأيتها تقف أمام باب بيتنا بثياب جافة وتغتابني أمام أمي. لم تكن قد قالت لها شيئاً عن دفعي لها وابتلال ثيابها. لأنها لو قالت ذلك كان سيعرف أنها أتت معي إلى ضفة الماء. فقط قالت بأنني أردت أن أتسكع معها.

منذ ذلك الحين لم نذهب بعدها معاً إلى ضفة النهر ولا تسكعنا.

في ذلك الوقت كنت أحبها لكنني تركتها بسبب غيبتها وأكثر من ذلك من أجل صنارة صيد السمك التي رمتها في الماء مما سود وجهي أمام حميد فذهبت وراء فتيات أخريات ولكنني لم أعد ممتعضاً منها أو من الفتيات الأخريات اللاتي خيبن أملي وتركنني بعدها (أو تركتهن). كنت أفكر بالعديد من الفتيات وألاحق العديد منهن. كان هذا التصرف يتضمن خيبة أمل ولكنه كان يستحق ذلك.

كانت هناك امرأة تناديها من ورائها.

«أمازلت هنا؟ ستتأخرين»!

كانت أمها قد أخرجت رأسها من طرف الباب.

فقامت بتعريف أمها علي.

هزت أمها رأسها وقالت من جديد: «ستتأخرين»!

فألقت الفتاة نظرة على ساعتها وقالت: «علي الذهاب إلى صف الخياطة. سعدت برؤيتك». وغادرت.

كانت أمها قد تذكرتني فسألت عن أحوالي وعزتني بوفاة أبي.

(١٢)

في مرة من المرات بللني أبي. كان صباحاً بارداً ذهبنا فيه إلى ضفة النهر. كان أبي قد خلع كل ملابسه ونزل في الماء. كان سعيداً لدرجة أنه طلب مني أن أنزل معه في الماء. كنت أقف إلى جانب ملابسه وكيسه كالعادة وأرتجف في مكاني من البرد. ظننت في البداية أنه يمزح لكن رأيته يخرج من الماء ويحاول نزع ثيابي عني بالقوة ويأخذني باتجاه الماء. فأمسك يدي وجرني إلى ضفة الماء ثم دفعني بثيابي إلى الماء. انقطع نفسي من البرد خلصت نفسي من يده وخرجت من الماء. ولكنني كنت قد تبللت بالكامل وكان الماء يقطر من جميع أعضاء جسدي. كنت أتجمد فنفضت نفسي وركضت على طول النهر وأنا أسمعه يقهقه في الماء. ولكثرة ما تضايقت من مزحته الثقيلة هذه. تناولت الكيس وملابسه التي كان قد طواها بشكل مرتب ووضعها إلى جانب الكيس قبل أن ينزل في الماء ومنشفته التي كانت داخله ورميتها في الماء وهربت من دون أن أنظر ورائي.

عندما وصلت إلى البيت كنت أشعر بالحر الشديد لكثرة ما ركضت لكنني كنت لا أزال مبللاً فارتعبت أمي وانهالت علي بالأسئلة. وبينما كانت تنزع لباسي عني تحت الشمس كنت أحدثها عما حدث. قلت لها إن أبي يذهب إلى ضفة النهر أحياناً بدلاً من الحمام وإنني كنت أبلل رأسي فقط. واليوم، وقبل أن أبلل رأسي بللني أبي من رأسي إلى أخمص قدمي.

وبعد دقائق عدة عاد أبي بثياب وكيس مبلل. فنزعت أمي عنه ملابسه تحت الشمس وهي توبخ وتشتم وتصيح وتلعن بلا انقطاع. لم يقل أبي شيئاً ولم ينظر إلي حتى. دفأ نفسه وارتدى ملابس جافة وذهب.

كانت تلك آخر مرة ذهبنا فيها للسباحة معاً. ولم نذهب بعدها معاً حتى إلى الحمام. في بعض الأيام صباحاً عند الفجر. كان أبي يتناول حقيبته عند الفجر بهدف الاستحمام ويخرج لكنه لم يكن يأخذني معه. كان يقول لأمي: «لقد كبر الولد. يجب أن يذهب وحده إلى الحمام». ولم تكن أمي أو أنا نعرف إن كان يذهب إلى الحمام أم إلى ضفة النهر.

(١٣)

كان عرض نهر زاينده يضيق بعد جسر خواجو ويزداد عمق الماء. كان المنظر هناك عجيباً: كان هنالك زورق بمحرك راسياً عند طرف الماء. كانت تلك أول مرة في حياتي أرى فيها زورقاً في نهر زاينده ـ وكان زورقاً بمحرك أيضاً. في البداية ظننت أنني أحلم لأن أحلامي ازدادت مؤخراً. ولكن عندما عدت إلى البيت وقلت لأخ زوجتي فقال لي بأنه لم يره ـ لأنه لم يمر من هناك مؤخراً ـ لكنه سمع أن هنالك زورقاً يركبه الناس هذه الأيام في النهر. قال لابد أنه من اختراع الخوزستانين الذين أتوا إلى أصفهان بعد الحرب. لم يكن الأمر مستبعداً لأن الخوزستانين في أصفهان كانوا كثيرين هذه الأيام. وبما أنهم هنا الآن بدلاً من أن يهتموا بمدينتهم وبيوتهم وحياتهم فقد رموا زورقهم في نهر زاينده بدلاً من أن يرموه في نهر كارون. ولكن أين نهر زاينده من كارون؟ كان نهر زاينده حياً ومحيياً فقط في صحراء برهوت في أصفهان. ولكن بالنسبة لسهول خوزستان الخضراء لم يكن نهراً عادياً حتى (أو حسب قول أهل أصفهان، مادياً). لكن أبي كان يقول إن نهر زاينده كان يوماً ما فعلاً حياً ومحيياً فكان سرير الماء يغمر نصف الحاجز الرملي. حتى عندما كانت تهطل أمطار غزيرة كانت المياه تفيض وتتجاوز الحاجز وتصب في الطرقات والأحياء القريبة من النهر. (وكان أبي يقول) أنه حتى في الفترة الأخيرة عندما كنا نسكن قرب النهر أن الماء ارتفع وغمر حينا. لم أتذكر هذه المرة ولم أكن قد رأيت تلك الأيام التي كان

فيها نهر زاينده ممتلئاً بالماء. كان هذا بالنسبة لي مثل قول الناس أن أبي كان يوماً ما خياطاً مشهوراً. لم أر لا هذا ولا ذاك بأم عيني. ولكن يظهر من عرض الجسر أن الماء كان يوماً ما (على الأقل وقت بناء الجسر منذ مائة سنة مضت) أكثر بكثير مما هو عليه الآن. لذلك فإن جسر سي وسه أطول من جسر خواجو. ليتمكنوا من إغلاق مداخل الجسر بألواح فيتجمع الماء ويشكل بحيرة صغيرة وراء الجسر ويركبوا الزوارق فيها (منذ مائة سنة مضت) وفي أسفل الجسر - والمداخل وعلى الجسر - كان الناس يجلسون في دائرة إلى جانب بعضهم البعض ويغسلون أرجلهم بالماء على الدرجات السفلية. وكان الماء المتبقي من البحيرة الاصطناعية يجري من خلال مداخل الجسر. وكما أذكر لم يكن الماء يغمر نصف مداخل الجسر، ومن جسر ٣٣ بل كان الماء يغمر ثلاثة أو أربعة مداخل في منتصف الجسر فقط.

عندما رأيت الزورق تذكرت أبي وقلت لنفسي لو أنه رأى هذا المنظر فما كان سيقول أو يفعل. أكان سيضحك أم لا؟ أكان سيركب أم لا؟ رأيت الزورق من بعيد ولم أقترب ثم انتابني الضحك. في اليوم التالي لم أعتقد أنني سأراه ولكنني رأيته. فاقتربت ووقفت إلى جانبه وتفرجت عليه. كان زورقاً. زورقاً بمحرك. نفس تلك الزوارق التي يمكن رؤيتها في خرمشهر عند الذهاب إلى هناك وفي أبادان وعلى ساحل البحر. كانوا قد بنوا حاجزاً من براميل عدة موصولة ببعضها، ومثبتة بألواح مسطحة. كان هذا أول رصيف مراكب على نهر زاينده من أجل أولئك الذين كانوا يريدون أن يستقلوا الزورق. فكانوا يمشون عليه أولاً ومن ثم يستقلونه. مشيت عليه فاهتز كان يهتز عندما ترفع قدمك وتضعها عليه ويهز الشخص معه. ولكنه كان متيناً رفعت قدمي وأنزلتها ليهتز ويهزني وحين

اهتززت، اهتز الزورق وتحركت المياه والأشجار هناك ومع كل اهتزاز كان اللوح أسفل قدمي يصدر صوت أزيز.

خرج صبي في الحادية أو الثانية عشرة من عمره من الخيمة المنصوبة عند ضفة النهر، كان يمضغ شيئاً وينظر إلي، اقترب وهو ينظر إلي مقطباً فوقف. كان يناسبه أن يكون صاحب الزورق والرصيف، أو يكون لأحد أكبر منه، أو أن يكون مساعد ذلك الشخص. كنت أتوقع أن يعترض على وقوفي هناك، إذا قال بأن هذا رصيفه فسيكون كلامه صحيحاً، ولكن ضفة الماء وطرف الزورق لم يكونا ملكاً لأحد. كانا للجميع، وكان باستطاعتي أن أقف ساعات وأنظر من دون أن أركب.

بقيت على الرصيف والصبي عند ضفة الماء ومن ثم في الزورق ننتظر حتى أتى زبائن عدة كانوا عائلة بأكملها: رجل وامرأتان وأربعة أطفال.

فسألوا الصبي: «كم تأخذ»؟

أجابهم: «خمس ليرات للشخص الواحد».

ساومه الرجل على السعر مدة ثم في النهاية وافق الصبي على أن يحسب جميع الأطفال شخصاً واحداً والمرأتين بشخص واحد فيأخذ منهم خمس عشرة ليرة.

فصعدوا على الرصيف واهتز الرصيف بشدة حتى خافت النساء وأخذن يصرخن. فضحك الصبي. ووثب الأطفال على الرصيف فرحين وأخذوا يهزونه. وفي لحظة واحدة كان هنالك ثمانية أشخاص على ذلك الرصيف الصغير يهتزون فوبخ الرجل الأطفال وساعد النساء في الصعود على متن الزورق.

ثبت الركاب أنفسهم في أماكنهم وشغل الصبي المحرك وانطلق الزورق من مكانه. للحظة فقد الركاب توازنهم ولكنهم أعادوا تثبيت أنفسهم وأمسكوا بعضهم جيداً.

كنت أراهم يضحكون ويستمتعون، وكان صوت صراخ النساء لا ينقطع. كنت أتابع تموجات الماء التي كانت تسحب وراء الزورق على الماء، كانت هذه التموجات المتشكلة من زورق بمحرك على مياه نهر زاينده شيئاً جديداً ولم تكن في محلها ولم تكن تليق بالمياه. محرك ذلك الزورق وهو يموّج مياه نهر زاينده الذي كان مليئاً منذ ثلاثمائة سنة وأصبح الآن جافاً بتلك السرعة كان مقرفاً للغاية. لم يكن الرصيف قد توقف عن الاهتزاز بسبب الأطفال حين دار الزورق دورة ورسا في مكانه السابق.

هذا هو! انتهت رحلة العائلة في نهر زاينده بهذه السرعة! الإنصاف شيء جيد! خمس عشرة ليرة من أجل هذه الدقيقة؟

لكن العائلة لم تعترض ولم يكن هناك من داع للاعتراض. لأنه لم يكن من الممكن أن يتقدم الزورق أكثر مما قاده قائد الزورق: لأن عمق الماء كان قليلاً وأسفل الزورق يكاد يلمس الأرض هذا ما قاله الصبي الذي كان واضحاً من لهجته أنه ليس أصفهانياً.

سألته: «أتستطيع أن تأخذني إلى مكان أبعد بقليل؟ لأنه لا فائدة من أن أدفع لك خمس عشرة ليرة إلى ذلك المكان فقط».

فأجابني إن تقدم الزورق إلى الأمام أكثر فسيعلق بأرض النهر وينكسر. وقال بحزن: «لو أعطيتني ألف ليرة لما أخذتك إلى أبعد من ذلك».

فصرفت النظر عن ركوب الزورق.

(١٤)

في نفس الليلة رأيت نفسي أركب الزورق مع أبي وكنا نتقدم في مياه النهر إلى الأمام كان قائد الزورق السيد كُلتشين ولم يكن الزورق بمحرك بل كان بمجاذيف. كان السيد كُلتشين يجذف وهو جالس في آخر الزورق مرتدياً قميصاً داخلياً أكمامه قصيرة وطبعت عليه صورة بروس لي. كانت عضلات ساعديه تنقبض مع كل تجذيفة وتلمع تحت ضوء القمر. كان لديه مجذافان وكان يحركهما معاً ويمضغ العلكة. كان الوقت ليلاً ولكن جميع هذه الأشياء كانت واضحة تحت ضوء القمر. كان واضحاً أن الماء ساكن وكان الزورق يتقدم بحركة المجاذيف وليس بتيار الماء. ولكن في جريان ماء اليقظة. وكان واضحاً أننا ذهبنا أبعد من المكان الذي كان قد رسا فيه الزورق الذي يعمل بالمحرك وعبرنا من جسر بزركمهر وكنا ما نزال نتقدم. كنت خائفاً من أن يعلق أسفل المركب في قعر النهر. فقال أبي لا تخف يا بني. مياه النهر ارتفعت وأصبح بالإمكان الركوب في الزورق. فسألت إلى أين سنذهب؟ فقال نريد الذهاب إلى آخر النهر. كنت أعرف أنه في آخر النهر يوجد مستنقع. فقلت ألأنت تمزح؟ فأجابني كلا يا بني - نحن فعلاً ذاهبون لنرى ما شكل المستنقع الموجود في آخر النهر ومع أنني كنت أتمنى رؤية مستنقع كاف خوني الذي سمعت اسمه كثيراً لكنني كنت خائفاً قلت لنفسي وماذا إن غرقنا في المستنقع! فضحك أبي وقال لا تخف يا بني - عندما رأيت المستنقع من بعيد وقفنا. كان أبي يتحدث معي بطريقة

غريبة ـ مثل المعلمين ـ ويكرر كلمة يا بني. مررنا من أسفل جسر شهرستان أيضاً. ولكن جسر شهرستان لم يكن مهدماً كما في اليقظة. حتى الغرف قرب الجسر كانت سليمة. ولكنني لم أستطع النظر جيداً. لأن مركبنا كان يبحر بسرعة. كان الماء هادئاً ولم يكن هناك من صوت إلا صوت مجاذيف السيد كُلتشين. كنت أنا وأبي جالسين في الأمام وننظر أمامنا، وكنت أنا فقط الخائف الذي ينظر حوله، وأحياناً كانت عيني تقع عليه وهو يجذف وينظر أمامه ماضغاً العلكة. مررنا من أسفل جسر تشوم. كدت أموت من الخوف، وبينما كان أبي ينظر إلى الأمام وضع يده على كتفي وقال لا تخف يا بني ـ ليس هناك ما يخيف. كان علينا أن نقوم بهذا عاجلاً أم آجلاً لم يكن هناك فرق. لم يكن ينظر إلى بل إلى الأمام فقط، وهذا ما كان يخيفني أكثر من أي شيء. ظننت أنه لم يبق شيء. قال أبي أجل يا بني نكاد نصل، لكن كانت ما تزال هناك مسافة. سأخبرك عندما نصل. فقلت لنعد يا أبي. فقال لقد أعطيته كل هذه النقود ليحضرنا إلى هنا والآن تقول لنعد؟ قلت فلتحترق النقود في الجحيم! إلى أين نحن ذاهبون؟ لا يوجد ما يستحق الرؤية في المستنقع؟ قال كيف يمكن أن لا يوجد ما يستحق الرؤية في المستنقع يا بني؟ كل حياتنا في هذا المستنقع، إن وجودنا وكل ما نملكه موجود فيه، كل المياه التي دهنّا بها أجسادنا انصبت فيه، وأنت تقول لنعد؟ قلت لا بأس فنحن ذاهبون أليس هذا ما تريده؟ فقال. رأيت أنه لا فائدة مهما قلت لم يكن يقبل. عدت إلى الوراء قليلاً فلم يحرك ساكناً، فالتفت ونظرت إلى كُلتشين، كان ينظر إلي من دون أن يرف. قرأت في نظراته أنه يقول حان الوقت، كان يقول الحقيقة كانت أفضل فرصة. كان أبي ينظر إلى الأمام من غير أن يتحرك وكان يجلس تماماً على طرف الزورق، فدفعته من الخلف بيدي ليقع في الماء ولكنه لم

يتحرك، كان مثل صخرة تقبع في مكانها، ثم دفعته مرة أخرى بيدي بقوة ولكن ذلك لم يجد نفعاً، وكأن شيئاً لم يكن ولم يلتفت حتى تقدمت أكثر ونظرت إليه جيداً، كان مثل كُلتشين لا يرف. عندها تذكرت أن شفاهه لم تكن تتحرك طوال الفترة التي كان يتحدث معي فيها. فقلت وصلنا أم لا يا أبي؟ لم يقل شيئاً. كدنا نصل هل كنت متأكداً أننا إما وصلنا أو نكاد نصل. ركضت إلى نهاية الزورق وأردت أن أسحب المجاديف من يدي كُلتشين. لكن يديه كانتا قد تشبثتا بمقبض المجذاف بشدة. ولم تكن هناك من جدوى في هزه، حيث كان يقوم بعمله فقط. كان يجذف ويمضغ العلكة وينظر إلى الأمام. فغطست في الماء.

كنت قد صدمت رأسي بقوة بطرف طاولة غرفة الضيوف في بيت عمتي مما جعل زوجتي تستيقظ مذعورة وتشعل الضوء. تفحصت رأسي في المرآة. لم يكن ينزف ولكن بعد قليل انتفخ وبدأ يؤلمني. كنا ننام في غرفة الضيوف وكان فيها طاولة وكرسي وأثاث والعديد من الكراكيب ولم يكن هنالك مكان كاف للنوم. كانوا قد جعلونا ننام في غرفة الضيوف لنفهم أننا ضيوف ويجب أن نفكر بالبحث عن مكان لأنفسنا. كانت زوجتي تقول بأنني لا أنام جيداً في الليل أيضاً أصرخ وأبكي وأتقلب في مكاني: «لو كان عندنا غرفة نوم بسرير كبير لشخصين لما حصل هذا». كانت تقول هذا من الحرقة لا من أجل أن تتذمر.

رويت لها الحلم الذي رأيته وبينما أنا أرويه لها نامت.

(١٥)

بدأت أحلام أبي تراودني منذ تلك الليلة. كنت أراه كل ليلة في الحلم تقريباً، أحياناً كنت أرى حلم الليلة التي سبقتها. ولكن بدلاً من القفز في الماء كنا نصل إلى المستنقع، وكان مكان المستنقع بحيرة واسعة تحيط بها أشجار عالية ذات حجم واحد، وكانت مياهها تلمع تحت ضوء القمر. كان أبي يقول إن هذه البحيرة أعمق بحيرة في العالم لأن جميع مياه نهر زاينده كانت تصب فيها منذ البدء وقد تجمعت هنا ولا يعرف أحد كم عمقها. بعد ذلك كنت أخاف وكان أبي يضحك ويرميني في الماء مازحاً أو يقفز هو في الماء ليجد قاع البحيرة وكنت أقفز وراءه في الماء. أو كان زورقنا ينقلب ونقع ثلاثتنا في الماء. أو من الأساس لم تكن هناك بحيرة بل مستنقع وكان زورقنا يعلق في الطين ويبقى في المستنقع، فكنت أرمي نفسي فيه لأستيقظ. أو قبل أن نصل إلى البحيرة أو المستنقع كان زورقنا يعلق في قعر النهر وينكسر. ومرة أتيحت لي الفرصة أن أرى جسر شهرستان بوضوح. كان سليماً تماماً. كما كان قد بني في ذلك الوقت وكنت قد رأيته مرات عدة في اللوحات.

في أغلب تلك الأحلام كان أبي وكُلتشين موجودين. ولكن في بعض الأحلام كان أبي فقط موجوداً، وفي أغلب الأحلام التي كان فيها كُلتشين موجوداً كان يرتدي ذلك القميص الذي عليه بروس لي. في بعض الأحيان كنت أروي لزوجتي هذه الأحلام، وحين أرويها

كانت تبقى في ذهني لفترة وتتكرر ثانية ولم تبارح ذهني بسرعة. مثل ذلك الحلم الذي رأيته في أول ليلة وبقي في ذهني بحذافيره لعدة أشهر وكنت قد بدأت مؤخراً بكتابته.

(١٦)

لم أر كُلتشين منذ عشر سنوات. منذ أن أنهيت الابتدائية لم أر كُلتشين ولا مرة واحدة طوال سنوات الثانوية مع أن الثانوية كانت متصلة بالابتدائية. ولم أفكر فيه حتى عندما أتيت إلى طهران. ولكن منذ أن توفي أبي في السنة الماضية أخذت ذكراه تختلط بذكرى أبي وكان يؤذيني في الحلم. لا أعرف ما الذي كان يربطه بأبي. وكان قد رأى أبي مرة واحدة فقط وبالمصادفة. وحتى أنا لم يكن يعرفني جيداً حتى عندما كنت طالباً في الصف الرابع. لم أكن من أولئك الطلاب الذين كانوا يتحلقون حول طاولته ويرجونه أن يكاسرهم بالأيدي. ولم يكن ينتبه لي أصلاً ومع أنه ضربني بالعصا مرات عدة إلا أنه لم يكن أستاذاً شديداً وكان معروفاً بين الأساتذة أن تعامله أسهل من الآخرين ويمنح علامات أفضل. وكان هكذا فعلاً. وتلك الضربات بالعصا التي تلقيتها كانت بسبب أنني سهوت في الصف. وليس لعدم الدراسة. كان يتحسس من التثاؤب، وكان يصرخ في وجه كل من يتثاءب ولم يكن أحد يجرؤ على التثاؤب في صفه. أما أنا فلم أكن أتثاءب ولكنني كنت أغفو أحياناً، لم أكن أركز، كنت في عالمي الخاص، فكان يصرخ في طبلة إذني فأقفز من مكاني ويضحك كل الصف خلسة.

كنت متأكداً من أنني إن عثرت عليه فمن المستحيل أن يتذكرني ولو بألف إشارة. ولكنني أردت أن أعثر عليه بأية وسيلة، وأن أرى

وجهه على الأقل وطريقة حديثه وجفونه إن كانت ترف أم لا.

كان مستخدم المدرسة الابتدائية قد تغير. ولم يعد أي أحد من الأساتذة القدامى يدرس هناك. لم يكن المستخدم الجديد يعرف أحداً منهم إلا واحداً: السيد ايلتشي الذي كان أستاذ الصف الخامس الابتدائي والذي أصبح أستاذ ثانوية وكان يدرس في الثانوية المقابلة. كان بإمكاني سؤاله عن كُلتشين فقد كان صديقه ومن المؤكد أنه كان يعلم شيئاً عن كُلتشين.

كان مستخدمو الثانوية هم أنفسهم المستخدمون القدامى، ولكنهم لم يتذكروني ولم يدعوني أدخل. شخص مثلي كانوا يبقونه بالقوة كل يوم في هذه الخرابة لسنوات عدة والآن لم أكن أستطيع الدخول لدقيقة واحدة. في النهاية قلت لهم أنني أريد السيد ايلتشي في أمر ما عندها لم يعد هنالك سبب لئلا يدخلوني.

كان علي أن أنتظر جرس الفسحة. لم أكن أستطيع المشي في الباحة لأن ذلك كان ممنوعاً. قالوا لي أن أنتظر في المكتب وأعطوني فنجان شاي. كان هناك مشرف على المكتب يجلس على طاولة ويكتب في دفتر كبير. كان الدفتر القديم ذاته. أفترض أن صورة الإطار الكبير التي كانت معلقة على الحائط مقابل الباب قد تغيرت وأنهم ألصقوا صوراً جديدة في أنحاء المكان. كما أن المشرف على المكتب كان يبدو مألوفاً كان نفسه المشرف القديم ولكنه لم يكن يعرفني عندما كنت أدرس هنا فما بالك الآن. فقد أتيت مرة واحدة فقط إلى المكتب لأسجل اسمي.

سألته: «كم من الوقت بقي على جرس الفسحة»؟

فأجابني من دون أن يرفع رأسه عن مكتبه: «لم يبق الكثير، نصف ساعة فقط».

شربت الشاي دفعة واحدة ونهضت لأنظر من النافذة.

كان آخر الباحة ما يزال مكان الدراجات مثل السنوات الماضية، كان عدد الدرجات كبيراً لدرجة أنها كانت تملأ جميع أنحاء مناطق القضبان وزوايا وأطراف المكان في صفوف منظمة ومتداخلة، كانت الباحة قد فرشت بأوراق الشجر الصفراء، لابد أن المستخدم قد كنس الباحة هذا الصباح وقد سقطت الأوراق بهذه السرعة ـ لم يكن الظهر قد حل بعد ـ على الأرض. كنا عندما نأتي باكراً صباح أيام الخريف نرى المستخدمين يكنسون أوراق الباحة. وفي نفس الوقت الذي كانوا يكنسون فيه كانت أوراق الشجر تتساقط من ورائهم على الأرض التي كنسوا. كانت هذه الأوراق تبقى لكنس آخر وقد تبقى على الأرض يوماً وليلة. وكانت هناك أوراق تسقط في ذلك الوقت عند مكنسة المستخدم.

فكرت أنه ليس من السيء أن أسأل مشرف المكتب عن كُلتشين. ربما يعلم شيئاً ما عنه.

فقلت: «أتعرف السيد كُلتشين»؟

فرفع رأسه عن مكتبه وألقى نظرة علي. كان يضع نظارات ووجهه ضيق وله لحية قصيرة. فقال: «ألم تكن تريد السيد إيلتشي في أمر ما»؟

«بلى. أنا أريد السيد إيلتشي في أمر ما ولكنني كنت أفكر ـ في الحقيقة أنا كنت أدرس في الابتدائية المجاورة وفي هذه الثانوية أيضاً».

«حقاً، إذن فأنت طالب قديم هنا؟ ما اسمك»؟

قلت اسمي وكنيتي.

فلم يذكر.

فقلت: «أجل. كان السيد ايلتشي أستاذنا في الابتدائية. وكان السيد كُلتشين هناك أيضاً. كان السيد ايتلشي أستاذ الصف الخامس. والآن أصبح أستاذ ثانوية ــــــــــ»

قال: «أجل. أصبح بعض أساتذة الابتدائية أساتذة ثانوية يدرسون في هذه المدرسة. في ذلك الوقت كانوا أساتذة ابتدائية لأنهم لم يكونوا قد حصلوا على شهادة جامعية، وكانوا يدرسون في نفس الوقت في الجامعة وعندما حصلوا على شهاداتهم أصبحوا أساتذة ثانوية كان السيد كُلتشين أحد هؤلاء الأساتذة الذين درسوا هنا لفترة قصيرة».

«السيد كُلتشين أم إيلتشي»؟

«كلاهما قدما إلى هنا معاً».

«إذن فأنت تعرفه»؟

«السيد إيلتشي»؟

كلا، السيد كُلتشين».

«بالتأكيد».

«هل هو هنا أيضاً»؟

«كان هنا».

«والآن ألم يعد موجوداً»؟

«كلا».

«أين يمكن أن يكون»؟

وضع مشرف المكتب قلمه على الدفتر الذي كان موجوداً على الطاولة واتكأ على كرسيه وقال: «إذن فأنت لم تسمع بما حصل»؟

«ماذا حصل»؟

«لقد كتبت عنه الصحف».

«أي صحيفة»؟

«صحف أصفهان».

«كنت غائباً لسنوات عدة».

«أظن أن صحيفة كيهان كتبت عنه أيضاً».

«ماذا كتبت»؟

«أنه غرق».

«أين»؟

«هنا. في نهرنا هذا».

«متى»؟

«منذ سنتين تقريباً».

«فقط؟ أكتبوا أنه غرق»؟

أجل، انتشلوا جثته من الماء قرب مدينة ورزنه. ولم يتضح إن كان الماء سحبه إلى هناك أم أنه ذهب بنفسه إلى هناك ليسبح. لأنه كان يقوم بهذه التصرفات كثيراً. كان أولئك الذين يعرفونه يقولون إنه كان يذهب كل مرة إلى مكان مختلف يسبح فيه. كان هناك شيء عجيب يربطه بهذا النهر. ولكنه كان أمراً غريباً جداً. سباح ماهر مثله لا يجب أن يغرق في هذا النهر».

«هل كان سباحاً»؟

«ألم تقل بأنه كان أستاذك»!

«بلى، كان أستاذنا في الصف الرابع الابتدائي».

«إذن كيف لم تكن تعرف أنه كان سباحاً؟ كان بطل أصفهان في السباحة وقد حاز على كؤوس عدة. لذلك قاموا بكتابة خبر غرقه في الصحف».

«لم أكن أعرف».

«السباحة غير ممكنة في هذا النهر، فقط يمكن بالكاد يمكن العوم فيه. لا أعرف ما الذي كان يربطه بهذا النهر. كان يترك كل هذه المسابح الجيدة ويذهب إلى النهر. الكثيرون يفعلون هذا. صحيح أن المسابح النظيفة والجيدة في النوادي الخاصة ليست مهيأة للناس العاديين، لكن لبطل سباحة مثله كان كل شيء مهيأ. الكثير من الناس في الصيف يغرقون في هذا النهر. ولكن ليس الجميع مشهورين مثل كُلتشين ليكتب اسمهم في الصحف. مساكين. لا يوجد مكان للسباحة. لا أعرف إن كنت رأيت ذلك أم لا لكن لكثرة ازدحام المسابح العمومية في الصيف لا يمكن حتى العوم فيها. صحيح أنه لا يوجد الكثير من الماء في النهر لكنه مليء بالدوامات المائية. أتعرف هذا»؟

قلت: «أجل، سمعت بذلك».

كرر جملة «مليء بالدوامات المائية». وتنفس الصعداء وهز رأسه.

نهضت وقلت: «شكراً على الشاي».

فقال: «ألم تكن تريد السيد إيلتشي بأمر ما»؟

فقلت: «كلا». وخرجت من الغرفة.

سمع صوت تكبير من أحد الصفوف ـ كان صوتاً واحداً ومرتفعاً.

(١٧)

لم أعد أستطيع البقاء في أصفهان. لقد مرت علي سبعة أشهر وأنا هنا وقد اكتفيت. كنت أذهب إلى بيت والدي زوجتي للمبيت فقط وكنت بقية اليوم شارداً في الطرقات. كنت أمر على دكان أبي ـ الذي أصبح محل «نهر زاينده» ـ قليلاً. لأنني كنت كل مرة أذهب فيها إلى هناك ما أن أفتح الباب حتى أرى طاولة أبي الخشبية بدلاً من الطاولة الزجاجية، وأرى أبي بدلاً من زوجتي وأخ زوجتي اللذين كانا خلف المنضدة. لم أكن أستطيع البقاء هناك لدقيقة واحدة. كنت أسير في الأزقة والشوارع وكلما ذهبت من شارع وجدت نفسي قرب النهر. مررت عشرات المرات أمام باب مدرستي القديمة وحينا القديم ومن جانب الزورق ذي المحرك وفوق جسر ثلاثة وثلاثين وجسر خواجو، ومرة ذهبت إلى جسر شهرستان لأرى كيف أصبحت هيأته. فلم تكن قد اختلف على الإطلاق. كان ذلك الجسر المهدم نفسه. ومن الغرف السليمة إلى جانب الجسر التي رأيتها في حلم الليلة الأولى لم يكن قد بقي منها إلا الخراب، وكان النهر أسوأ من كل شيء. كنت أمشي في الشوارع التي كنت أعرف أنها بعيدة عن النهر. ولكنني كنت أصل إلى النهر ثانية. أحياناً كنت أتخيل أن هناك نهراً آخر، لكن لم يكن هناك نهر آخر في المدينة. أو كنت أتخيل أنه مادي، ولكن عندما كنت أقترب لم أكن أرى شيئاً. كان هو نفسه نهر زاينده. ثم كنت أقول لنفسي بما أن نهرنا له انحناء في المدينة فإنه كان يبدو لي أخضر. ولكن كيف كنت أتمكن من خداع نفسي؟ لقد

كبرت في هذه المدينة، لقد كبرت مع هذا الانحناء. كان له انحناء صغير. ليس بمقدار أن يدور حول المدينة ويعانقها بشدة. كان يثير حنقي شيئاً فشيئاً كان في يقظتي وأحلامي. ورأيت أنه لا يوجد حل إلا في الهرب منه.

كنت قد قررت أن أعود إلى طهران في اليوم التالي. رأيت نفسي أدخل دكان أبي للخياطة. كنت قد عدت من السفر (من طهران) وبيدي صرة سفر. كان أبي خلف طاولته يعمل. وضع المقص على الطاولة ومد يديه إلى الأمام وقبلني.

قال: «أين كنت يا ولد؟ لم نعد نراك. تتأخر كل مرة أكثر فأكثر. ما الأخبار في طهران»؟

قلت: «لا توجد أخبار جديدة».

قال: «أنت لا تتغير أبداً. لا أعرف ما الذي فعلته لك حتى تعاملني بهذه الطريقة. ذاك من أمك وهذا منك»!

ثم تأوه بحرقة آهة نسمعها في الأفلام والقصص فقط». عروسي أحن من الجميع. لو لم تكن عروسي لمت من الغم إنها أمام عيني ليلاً ونهاراً. لا تتزحزح من هنا. كما أن خياطتها جيدة جداً. لن تجد في المدينة خياطة أفضل منها. ولكن إلى متى ستعيش معي؟ هذا ليس عدلاً. شابة. تزوجت حديثاً عندها أمل تتمنى أن يكون زوجها إلى جانبها. أعتني بها. إنها تستحق أن تؤمن لها حياة ومنزلاً. هل تزوجت فتاة من طهران؟ أو شغلت نفسك هناك؟ إن كنت فعلت فقل لي. بالله عليك قل لي. قل لي حتى نعلم ماذا سنفعل»!

تحدث كثيراً وكان كل كلامه من هذا النوع. كان أحياناً يضحك أثناء كلامه ويغمز ويرفع حاجبيه وينزلهما. لم أره قبلاً يتحدث بهذه الكثرة. حتى في الحلم.

عندما استيقظت كان الوقت يقارب الظهيرة لكثرة ما ثرثر أبي وحملني بنصائح أبوية لم يدعني أستيقظ باكراً وكانت زوجتي قد غادرت إلى المحل ولم أعد أستطيع أن أروي لها حلمي. مع أن هذا الحلم لم يعجبني ولم أرد أن يبقى في ذهني حتى أنه أزعجني. ومن شدة انزعاجي لم أرد أن أحكيه. لبست ملابسي وذهبت مباشرة إلى المحل. كان أبي وزوجتي خلف المنضدة أما أخو زوجتي فكان خلف الصندوق. كانت زوجتي تلبي طلبات بعض الزبائن. ابتسم أبي وانحنى على المنضدة ليصافحني. ولكنني ذهبت إلى جانب زوجتي من دون أن أنتبه إليه انتظرت حتى خرج الزبائن (لقد أنهت طلبهم بسرعة مع أنني كنت كلما مررت على المحل أجد زبائن) عندها قلت لزوجتي «اسمعي، هل أنت راضية عن حياتك»؟

احمر وجه زوجتي وأخذت تنقل ناظريها هنا وهناك وقالت بحذر: «حسناً من الواضح أنني راضية. ما قصدك»؟

كانت محقة بأن تتجمد في مكانها لأننا لم نكن نتحدث عن مثل هذه الأحاديث المنمقة كما أن وجود الآخرين كان يزعجها كثيراً وكانت خائفة قليلاً.

سألتني: «ما الذي حدث لك»؟

فقلت: «اسمعي. إن كنت تتضايقين مني أحياناً فقولي لي مباشرة».

فقالت: «أنا لست متضايقة منك».

فقلت: «كيف يعقل أنك لست متضايقة مني؟ ألست متضايقة مني لأنني لا أسعى وراء الرزق والعمل ولا أهتم بمنزلنا وحياتنا»؟

«لا»!

إذاً ماذا قلت لهذا الرجل العجوز»؟

«أي رجل عجوز»؟

أمسكت يد أبي ووضعتها في يد زوجتي وقلت لزوجتي: «لا تدعي عدم المعرفة. اسمعي، لا تتظاهري بالغباء؟ واضح؟ ولا تتحدثي عني بالسوء مرة أخرى. لا أحب الناس الذين يتحدثون بالسوء».

فاحمر وجه زوجتي مرة أخرى وتلألأت الدموع في عينيها فهي كانت دائماً جاهزة للبكاء، وتمتمت قائلة: «حسناً».

قلت: «أنا لا أحب هذه الأعمال. أكاد أموت من الهم في هذه المدينة. سأذهب إلى طهران. هناك أستطيع أن أجد عملاً أسعد فيه. سنبيع هذا المحل أيضاً ونذهب إلى طهران. حسناً»؟

قالت: «أجل، حسناً».

فقلت: «حين أجد عملاً سأبلغك».

عندما خرجت من المحل كانت تجهش بالبكاء.

بعد ظهيرة ذلك اليوم ذهبت بالحافلة إلى طهران لأكون هناك في المساء.

(١٨)

طوال الفترة التي كنت فيها زوج امرأتي لم أمد يداً لها بتاتاً لأنها كانت بنت عمتي السابقة ولم أكنّ لها أية مشاعر كفتاة عادية من قريب. ولكن من بعيد كنت أحبها كآلهة دائماً، وكنت أرغب في أن تكون زوجتي، ليس من أجل فعل شيء ما معها، ولكن كل فتيات حارتنا وفتيات الحارات الأخرى اللواتي كنت قد رأيتهن واللواتي لم أرَهن كنّ يعنين شيئاً بالنسبة لي، وأنا كنت أفكر كثيراً في كل فتيات حارتنا وفتيات أصفهان وكل فتيات طهران وكل فتيات العالم اللواتي كنت قد رأيتهن ولم أرهنّ، وكنت أرغب فيهن كلهن وكنت أفكر دائماً أنني لو تزوجتهن كلهن لربما كنا عشنا أكثر من هذا معاً، وربما لو كنا أنجبنا عشرة أولاد ما كان أحدهم سيكون شبيهاً بأبي، ولكنني كنت متأكداً من أن ابني من بنت عمتي السابقة سيكون مثل أبي تماماً.

كان والد زوجتي قد كتب بخط جميل في رسالة وصلت بعد شهر من وصولي إلى أصفهان:

كان أملي دائماً أن يكون لي حفيد من ابنتي.

ذكرتني هذه الجملة بأبي وذكرتني أن كل امرئ له أمنية حقاً، إذاً أنا لي أمنية أيضاً وسألت نفسي: «ما كانت أمنيتي؟». وجاوبت نفسي أمنيتي كانت أن أبي...

أمنيتي كانت أن أبي...

أمنيتي كانت أن يموت أبي. والآن إذ مات لم تعد لي أية أمنية.

كان والد زوجتي قد كتب:

أعطينا ابنتنا لابن رجل أفنى حياته في هذه المدينة وكان قد فتح محل خياطة محترماً، على كثير من الأمل وكنا نتصور أن ابنه سيتبع خطا والده أيضاً وسيهتم بالحب والحنان وسيؤمن مستقبلاً سعيداً له ولزوجته وأولاده، ولكن يا للحسرة كنا مخطئين دون أن نعلم...

وإضافة إلى ذلك الكلام كان قد ربط عدم إنجاب ابنته بعجزي وأخيراً طالب باحترام أن أتكرم وأطلق ابنته، ومع أن محل الخياطة كان مهر زواج ابنته إلا أنها لم تجلب جهازاً (لأننا لم نكن نملك بيتاً)، كان مستعداً حتى أن يحل مهرها عليّ وأحل روحها[1]. ولكن بما أن ابنته ذاتها وابنه كانا مهتمين بالمحل، فهو كان مستعداً لشرائه بسعر منصف. ومن أجل هذه الأمور كان لزاماً علي أن أسافر إلى أصفهان.

(١) كلام يقال عند الطلاق بحيث تتنازل العروس عن مهرها لكي تتخلص من كل تعقيدات الطلاق.

(١٩)

بعد أسبوع من عودتي إلى طهران مررت على محل بيع الكتب. كانوا قد صرفوا البائع الجديد الذي كان قد جاء العام الماضي بعد طردي. ولكن أحوال العمل كانت كاسدة ولم يكن هناك أي داعٍ لبائع جديد. جلب مدير المحل الشاي وعاملني كصديق قديم حميم وقال إنه لم يعد يبيع الكتب المدرسية لأنها غير مربحة، وكانت سوق الكتب الأخرى كاسدة في هذه الأيام أيضاً بسبب الحرب التي كانت تدور، ولم يكن يطبع كتاباً جديداً منذ فترة إلاّ نادراً ولم يعد يشتري شخص كتباً مطبوعة (من كان يملك نقوداً لشراء الكتب؟ أية ملاليم موجودة في قعر الجيوب كانوا يصرفونها على البطون). قال «نحن أيضاً زيادة». كان يقصد نفسه والبائعين الباقيين. قال «أين الزبائن أصلاً»؟ وحقاً في الفترة التي كنت جالساً فيها هناك لم يدخل أي زبون.

قلت له إنني قد تزوجت ومن المفروض أنه عندما أتمكن من تهيئة حياة بسيطة مستقرة سأجلب زوجتي إلى طهران.

أعجب حديثي المدير كثيراً ونصحني أنه ينبغي على المرء أن يحب زوجته وأن يتحمل كل صعوبات الحياة من أجلها. وأضاف إنه يحب زوجته كثيراً أيضاً ومع أنه متزوج منذ ثلاثين عاماً فهو راضٍ عن حياته بالكامل وأنشد هذا البيت:

«إن لذة الحياة في الزوجة والأطفال،

من دون الزوجة والأطفال ستكون الحياة كالسجن».

كان يتكلم معي باحترام ويخاطبني بحضرتك - في حين إنه كان يناديني «أنت» سابقاً. وهذا بفضل وفاة أبي وزواجي وأيضاً بسبب طرده لي سابقاً.

عندما بادرت بالخروج سار معي حتى الباب وقال متى سنحت لي الفرصة أن أمرّ عليه.

قلت «حسناً».

بعد استلامي رسالة والد زوجتي، وقبل سفري إلى أصفهان ذهبت إليه وقلت «أنا ذاهب إلى أصفهان». ولم أقل بأنني سوف أطلق زوجتي. «سأذهب ليوم أو يومين وسأعود» فقط هذا.

في ذلك اليوم كان هناك زبون أو زبونان في محل بيع الكتب ولم يتصرف المدير بأريحية معهما. لم يطلب الشاي فحسب بل لم يقم بالنصيحة ولم ينشد شعراً ولم يكن له مزاج للكلام.

قلت «مات أبي».

قال «لقد أخبرتني»!

قلت «أعرف، ولكنني لم أخبرك عندما مات بل لاحقاً».

قال «أتذكر».

«في ذلك الوقت قلت سوف أذهب يوم أو يومين وأعود ولكنني لم أقل إن أبي مات».

«أعرف، أعرف. أتذكر، حسناً، لماذا لم تقل»؟

«لا أعرف لماذا، لم يخطر ببالي».

«ليس مهماً، الآن فات الأوان. لو لم تأت هذه القضية كان عليك أن تفكر في عمل آخر في تلك الأيام لأن العمل والكسب أصبحا كساداً منذ العام الماضي ذاته».

«إذاً أردتموني بشكل مؤقت! فقط في ذلك الفصل لبيع الكتب المدرسية عندما كنتم مشغولين جداً»!

قال «افترض هكذا، والقصد»؟

ليس عندي قصد. كنت أعرف من البداية بأنه أرادني فقط مادام مشغولاً. وإنني لم أخبره بوفاة أبي في حينها، لم يكن أمراً ـ كانت ذريعة فقط.

تم الطلاق، وأصبح محل «زاينده رود» بالكامل لابنة عمتي وزوجتي السابقة، وأعطوني مبلغ اختلاف السعر بين العام الماضي والآن، فقط.

(٢٠)

وصلتني رسالة من عائلة زوجتي السابقة مفادها إن ذكرى وفاة أبي قريبة، وتذكرني أنه ينبغي علي الذهاب إلى أصفهان من أجل ذلك اليوم، وأنا كنت مريضاً بحيث إذا أردت الذهاب فإنني لم أكن أستطيع. إضافة إلى ذلك فإن الأوان كان قد فات؛ إما أنهم أرسلوا الرسالة متأخرين أو أنها وصلت متأخرة - والرسالة ذاتها لم تكن مؤرخة. وجدت الرسالة عندما وصلت إلى البيت ليلاً. لم أكن أعلم أيضاً أنه ستقام ذكرى سنوية في ليلة ما قبل الوفاة - إن كانت هناك مناسبة - أو الليلة التالية. لكني على كل حال انزعجت كثيراً. و بعد العشاء عندما نام خشايار وحميد، ذهبت إلى المطبخ، مثل الليالي السابقة، وأنرت المصباح وجلست من أجل الكتابة ولكن لم تأتني فكرة لأسطرها. كنت أشعر بدوار وحمى. هذه الليلة الخامسة التي لم أنم فيها. كنت أسير في شوارع طهران عبثاً نهاراً - من الصباح حتى المساء. وفي عصر ذلك اليوم مررت على مديري السابق وقلت له إنني أكتب قصة في هذه الليالي، وهو قال لي ما أن أنتهي منها أعطيه إياها ليقرأها، وإن كانت جيدة سيعطيها للنشر. هو ذاته ينشر كتباً في بعض الأحيان - حل المسائل وكتب التعلم الذاتي وأسئلة الكنكور[1] ومن

---

(١) هو امتحان نهاية المرحلة الثانوية من أجل الوصول إلى الجامعة وتتشكل أسئلته من كل مواد السنوات الدراسية وتشمل أربعة بدائل للإجابة وينجح فقط عدد قليل فيه.

هذا القبيل غالباً. كان يعرف ناشرين كثيرين ولكن في اعتقادي، كان من المستبعد أن يعجب أحدهم بكتاباتي.

في تلك الليلة قرأت كل ما كنت قد كتبته. رأيت أنني كتبت كل ما أردت كتابته تقريباً ولم يعد هناك شيء في ذهني. نهضت ومشيت قليلاً. كنت أفكر بمحاسن ومساوئ العمل الذي أنجزته، ولكنني رأيته أمراً عبثاً، أو على الأقل ليس الآن وقت التفكير. كان من المبكر القيام به أردت أن أفرغ رأسي من كل فكر وتصور، وكل ما لا يمكن رؤيته وسماعه وشمه ولمسه. كان كافياً بالنسبة لي. لقد أنهكني عدم النوم هذا في الليالي السابقة.

(٢١)

أصدرت النافذة صوتاً وفتحت ودخل هواء بارد. ذهلت للحظة في مكاني وانتظرت أن يدخل أحد مع الهواء إلى الداخل ولكنني رأيتني أتجمد برداً. كان مقبض النافذة قد تجمد والنافذة تغلق بصعوبة بسبب شدة الرياح. ومرة أخرى أصدرت صوتاً واهتز المقبض في يدي. ها! الآن صار محكم الإغلاق. ولكن الصوت كان قوياً وخشيت أن يستيقظ الشابان فأطفأت المصباح ورجعت قرب النافذة إن كانت مفتوحة لأغلقها لأنها كانت ما تزال تصدر صوتاً وكأنها كانت على وشك أن تفتح مرة أخرى. وفي الوقت نفسه صدر صوت من تحتي وفكرت عسى ألا يكون صرصوراً دهسته ووقفت في مكاني ذاته ـ قرب النافذة ـ لكي لا أدهس الصراصير في الظلمة. وكنت أفكر في أن أضيء المصباح كي أرى ما أمامي، فجاء صوت ضحك من داخل الغرفة، وبعده صوت باب المطبخ الذي فتح بهدوء. رأيت أنه قد فات الأوان ـ أخذ معصمي أحد الشابين. قلت لنفسي ليته يكون خشايار على الأقل لأن حميداً يسخر سريعاً والكلام الذي كان عبأ خشايار به، سيمليه عليّ أيضاً وأنا لا أحب هذا قطّ. ولكن ما من مفر، مهما كان لقد فتح ظلفة الباب وكان على وشك الدخول. نظرت جيداً: في ظلمة عتبة الباب كان ظل أبي واضحاً.

قلت يا للهول ـ مرة أخرى كنت أحلم. قلت بصوت عال «أضيء المصباح الذي عندك»!

إذا كان أحد قاطني البيت وتصورته أبي، فعند إضاءة المصباح سيصبح معلوماً من هو. بحث بيديه عن زر الإنارة على الجدار قليلاً حتى وجده وأشغله. والآن إذ صار المكان مضيئاً بالكامل أصبحت أرى بوضوح أن هذا أبي الذي كان واقفاً ببنطاله المكوي وقميصه ذي الكمين القصيرين وشعره الأشيب ووجهه المحلوق، عند عتبة الباب ويبتسم لي. كانت له نفس الهيئة حينما كنا نذهب إلى الماء.

قلت «مرحباً».

قال «ماذا تفعل هنا»؟

قلت «كانت النافذة مفتوحة، جئت لأغلقها».

قال «المكان بارد هنا، ستصاب بالزكام».

قلت «عندي حمى، صحتي سيئة جداً».

قال «ارتد شيئاً! كي لا تصاب بالبرد»!

قلت «حسناً».

أطفأ مصباح المطبخ، ودخلنا الغرفة. كان مصباح الغرفة مضاء والمفارش[١] في زاوية الغرفة ـ ململمة ومرتبة. كان خشايار جالساً في إحدى زوايا الغرفة ويرتدي جواربه بينما كان حميد يمشط شعره أمام مرآة خزانة الملابس، في الزاوية الأخرى من الغرفة. كان هناك سماط مفروش وسط الغرفة مع نتف صغيرة من الخبز مبعثرة عليه وعدة أقداح شاي مشروبة ونصف مشروبة وصحن جبن. كانت هذه سفرة الفطور الذي تناولناه.

---

(١) ينام الإيرانيون عادة على الأرض ويجهزون فراشهم ليلاً في الغرفة.

أجلسني أبي ولفّني بالبطانية وقال «غطّ نفسك جيداً»!

لففت البطانية حولي وقلت لخشايار «هل رأيت أبي»؟

رفع خشايار رأسه وقال مبتسماً «صح النوم»!

أدار حميد رأسه أيضاً وضحك.

كان أبي جالساً على الأرض ويتكئ على المفارش.

قلت «ماذا عنك، يا حميد؟ أكنت رأيت أبي»؟

قال حميد «أنا؟ كأنك ما زلت تحلم، يا صاح»!

«كيف»؟

«ليست هناك حاجة لكيف. هذا الكلام الذي تقوله ليس لشخص صاحٍ».

سألت مرة أخرى «كيف»؟

هذه المرة قال خشايار «ليست هناك حاجة لكيف. فوالدك ضيفنا منذ ثلاثة أيام أو أربعة».

قال أبي «أكثر بقليل، ليلة أمس كانت الليلة الخامسة بالضبط».

قال حميد «كنت أعرف والدك منذ الطفولة، كنا جيران».

قلت «نعم، صحيح».

قال حميد «لمّا كنا في طهران وكلما أردنا السفر إلى أصفهان كنا نزوره من أجل أداء الواجب».

قال أبي «كان لطفاً منكم».

قال حميد «أتتذكر قبل سنة أو سنتين جئنا عندك؟ أنا أتذكر ذلك جيداً».

سأل أبي «أين»؟

«إلى أصفهان، في متجرك».

«إذاً»؟

«كان قبل الظهر وكنت تعمل. ثم تكلمتَ قليلاً».

سأل أبي «ماذا قلت»؟

«قلت لا تتزوج أبداً».

ضحك أبي.

قال خشايار لحميد «ولكنك على وشك ذلك»!

قال أبي «ماذا أيضاً»؟

قال حميد «أنشدت شعراً أيضاً، لا أتذكره الآن».

قال أبي «لا بدّ كان هذا: المرأة والتنين...».

قال حميد «ها! هو بعينه»!

قال خشايار «أ من الممكن أن تقول بقية الشعر»؟

أنشد أبي:

«المرأة والتنين كلاهما في الأرض الطيبة

العالم القدسي أفضل من هذين القذرين».

دوّن خشايار ذلك.

قال حميد «وأيضاً... وأيضاً قلت اشرب لبناً رائباً بالأخص بعد الطعام. فاللبن الرائب يطيل عمر الإنسان».

قال خشايار «يجلب اللبن الرائب النعاس».

قال حميد «وأيضاً، أتذكر أنك قلت أعرف قدر شبابك، فعندما يشيخ الإنسان لا يعود ينفعه».

قال أبي «حسناً، هذا واضح».

قال حميد «وقلت أيضاً الإنسان حتى سن الثلاثين أو الأربعين هو في طور الصعود، ثم يبدأ بالانحدار. بعد ذلك قلت أنا الآن في المنحدر».

سألت «أين أنت الآن، يا أبي؟ أتستطيع أن تخبرني».

قال أبي «الآن»؟ فكر قليلاً. «الآن في جادة مستوية، لست صاعداً ولا منحدراً».

سأل حميد «أترغب أن تكون في منحدرك إياه»؟

قال أبي «لا، لا. أرغب أن أكون في طور الصعود؛ صاعداً فقط».

كان خشايار قد ارتدى ملابسه وأخذ يدوّن ما يسمع.

(٢٢)

نهضت وذهبت إلى المطبخ، كنت أريد أن أوقظ نفسي. كان نور الصباح قد دخل المنزل، وكذلك لسع الصباح وكانت النافذة مفتوحة فأغلقتها، بإحكام. قلت الحمد لله أني تخلصت من الجنون. أنا الخبير بالاستيقاظ كنت أعرف أن الصباح في النوم هو علامة الاستيقاظ ـ مثل برودة الماء، مثل التبول. رجعت إلى الغرفة، كان المصباح لا يزال منيراً والغرفة مضاءة ـ ولكن ليست بضياء المطبخ، ولكنها مضاءة. وكان هؤلاء الثلاثة ما يزالون جالسين في أماكنهم، ومائدة الفطور مفروشة على الأرض بنفس الوضع. كان خشايار يكتب شيئاً، سعلت.

قال أبي: «لابأس، ستتحسن ادفئ نفسك فحسب».

قلت: «صحتي سيئة جداً، يبدو أنني أصبت بالزكام أيضاً».

قال أبي: «ليس شيئاً يذكر فنار الشباب ستحسن كل شيء».

جلست في مكاني ومرة أخرى تدثرت بالبطانية جيداً».

قال حميد: «شكراً جزيلاً، يا شباب! لقد عملتم معروفاً كبيراً من أجلي. سنبقى هنا لفترة ثم عندما تسنح الفرصة سنبحث لعلنا نتمكن من إيجاد مكان أكبر».

قلت: «أي معروف».

قال: «كان معروفاً كبيراً! أنا لا أجامل، في هذه الأيام لا يمكن

إيجاد مكان. بالطبع هناك مكان لأمثالكما! ولكن من أجلنا نحن الاثنين اللذين يتزوجان حديثاً فالأمر صعب جداً. مثلك أنت بالذات فإنني سمعت انك كنت تبحث عن بيت في أصفهان أيضاً، بالتأكيد تعرف كم هذا الأمر صعب.

قلت: «أنا لا أعرف عم تتكلم».

ضحك حميد. «وكأنك شردت بذهنك بعيداً!» التفت إلى أبي وخشايار كي يرى فيما إذا كانا يضحكان أم لا. فكانا ينظران إلي ويضحكان أيضاً.

قلت: «هل دبرتم مقلباً لي؟».

توقف حميد عن الضحك وقال لهما: «لنخبره، بالتأكيد أنه قد شرد بعيداً حتى نسي كل وعوده». ثم التفت إلي قائلاً: «اسمع جيداً! سترحل مع أبيك إلى أصفهان، ومن المفروض أيضاً أن يكتب خشايار باقي شعره في بيته وسأجلب زوجتي إلى هنا».

قال أبي: «هنيئاً لك».

قال خشايار: «عليك أن تبحث عن حل لهذه الصراصير أيضاً».

قال أبي: «أكان لديكم كل هذه الصراصير دائماً؟»

أجاب حميد: «لا، فالآن ليس موسم صراصير ولكن حسناً، ففي هذه الشقق القديمة...».

قال خشايار: «لا، منذ فترة ليس لدينا أية صراصير؛ في الصيف تجد الصراصير في كل مكان، ولكن عندما يبرد الجو...» ألقى نظرة إلى حميد وقال بحذر: «في الحقيقة، قبل ليال عدة ظهرت هذه الصراصير».

قال أبي: «هذه الليالي السابقة الأخيرة؟ قل من نفس اليوم الذي جئت فيه هنا، أرح نفسك!».

وضحكوا ثلاثتهم.

قال حميد: «الصراصير علي أنا! ما أن تذهبوا سأنال منها».

قلت: «ولكني لن أذهب».

ضحك حميد وسأل: «ألن تذهب؟».

قال أبي: «ما من حل آخر يا بني. عليكما أن تتصالحا، لقد أرسلوني من أصفهان كي أرجعك لهناك. لا تفعل شيئاً يريق ماء وجه أبيك».

قلت: «لن أتصالح مع زوجتي».

قال أبي: «حسناً، لا تتصالح ولكن عد».

قال حميد مرة أخرى: «شكراً جزيلاً، يا جماعة. لن ننسى أنا وزوجتي معروفكم أبداً».

التفت إلى أبي متسائلاً: «أصحيح أن أمي أصابها الكمد وماتت بسببك يا أبي؟»

أجاب أبي: «لا، ولكن أنا أصابني الكمد بسبب أمك».

«ولكن عندما متَّ، لم تكن أمي حية».

«لم تكن حية ولكن كنت أحلم بها كل ليلة».

«أنا أيضاً أحلم بك كل ليلة»

«إذاً انتبه كي لا تصاب بالفزع!»

فهقهوا ثلاثتهم.

صرخت على خشايار «ماذا تكتب؟»

قال: «هذا الحوار نفسه».

سألت: «ومن أجل ماذا؟».

قال: «ربما سينفعني»

«ينفع ماذا؟»

«ينفع شعري».

«نفس تلك المنظومة التي أنت تكتبها».

«أجل».

«أيمكن أن تقرأ لنا قطعة لم تقرأها في السابق؟»

قال خشايار: «نعم. بالتأكيد». ونهض وتناول حزمة ورق من فوق طاولته. بحث لمدة وسحب ورقة من بين الأوراق.

قلت مرة أخرى: «من الأماكن التي لم تقرأها في السابق».

قال خشايار: «حسناً، هذه لم أقرأها لك حتى الآن». جلس على الأرض وانتظر أولاً حتى يصمت الجميع وعندها تنحنح وشرع بالقراءة.

«من جسر إلى جسر

ثلاثة وثلاثون جسراً، خواجو...»

«دارام ـ دارام ـ دام ـ دام!» كان حميد الذي بدأ بالعزف بفمه، وضحك أبي.

«حتى نهاية النهر..»

وكرر حميد ـ «حتى نهاية النهر» ـ وبدأ بالتصفيق وقال «مرحباً!

كان هذا رائعاً جداً!» وصفق أبي أيضاً، لأنه تصور أن قراءة الشعر انتهت بهذه السرعة، ولكن خشايار كان يقرأ ولم يعد أبي يصفق غير أنه كان يلتف على نفسه بفعل الضحك وكان صوت تصفيقهما وضحكهما لم يسمح لي أن أسمع ما يقرأه خشايار. لأنه كان ما يزال يقرأ ولم يكترث بهما وكان يحاول أن يقرأ بصوت أعلى، ولكن صوتهما كان أعلى وبالكاد سمعت الكلمات الأخيرة هذه:

«گاوخوني هناك

مع مسافري الماء

حبلى ومشوشة».

ولم يقرأ بعد. رفع رأسه عن الأوراق وابتسم وكان من الواضح أن القطعة التي نوى قراءتها كان قد قرأها ولم يعد يهتم هل أن هناك من استمع إليها أم لا.

بالكاد ابتلع أبي ضحكته وفرك عينيه المبلولتين بفعل الدموع وقال «أحسنت!»

كنت أريد أن أسأل شيئاً حتى أظهر أنني كنت أستمع على الأقل. سألت: «ما كان قصدك من قولك إنها هناك؟»

قال: «لم أكن أقصد شيئاً».

«كيف يمكن؟»

«أنت قل أولاً لنرَ ما قصدك من القصة التي تقوم بكتابتها؟»

«أنا؟»

«نعم، أنت»

«أية قصة؟»

«القصة ذاتها التي تكتبها هذه الليالي. أتتصور أنني لا أفهم؟ ولكنني كنت أتظاهر بالنوم كي تقوم بعملك براحة بال».

كان واضحاً أنه قال هذا بعصبية. كان يتصور أنني كنت أريد أن أنصب له فخاً أيضاً، وبإفشاء سري أراد الانتقام.

(٢٣)

أغمضت عينيّ وأبقيتهما مغلقتين لفترة واستمررت على هذا الوضع وأبقيتهما مغلقتين حتى جاءني النعاس وكنت على وشك النوم، ورأيت إن كان هذا حلماً وفي هذا الحلم أنام، عندما أنهض من النوم الثاني، سأكون في النوم الأول ذاته ومرة أخرى علي أن أستيقظ من هذا النوم، ورأيت أنه لا ينبغي أن أسمح لنفسي بالنوم. وفتحت عينيّ ورأيت أن أبي كان بهيئته نفسها وما يزال يضحك.

قلت: «قل الحقيقة: هل أنت حي؟»

قال بثقة: «نعم، أنا حي».

نهض وأراني نفسه من أعلى أسه حتى أخمص قدميه. كان يتحرك وله جسد.

قال: «تعال! جرب!»

نهضت، ولمسته، شممته لم تكن تفوح منه رائحة الأموات.

ضحك وقال: «أتريد أن نذهب عند النهر؟».

قلت: «أين هنا من النهر؟ فهنا طهران».

قال بثقة: «جرب!»

ذهب باتجاه الباب وعند الباب وقف ينتظرني.

رميت البطانية. ارتديت معطفاً على ملابسي ودلفنا إلى الخارج.

إن كنت نائماً، الآن عند خروجنا في هذا الجو البارد أول الصباح لكنت أستيقظ. ولكننا ذهبنا خارجاً وكان الجو بارداً جداً ونور الصباح ساطعاً جداً ولكنني لم أستيقظ. إذاً كنت مستيقظاً وهذا فعلاً أبي من كان يسير جانبي في الشارع ـ بقميصه ذي الكمين القصيرين. في هذا الوقت من السنة، هذا الوقت من اليوم، في هذا الجو، في هذا الضياء الذي يمنح ثقة.

قلت: «لماذا لم ترتد معطفك؟»

قال: «ليست هناك حاجة لمعطف فأنا لا أشعر بالبرد أبداً»

سألت: «إلى أين نذهب؟»

قال: «ذاهبون إلى شارع لاله زار».

سألت: «لماذا هناك؟»

قال: «عندي عمل».

قلت: «ما هو العمل؟»

قال: «لا تسأل! فأنا أحب تلك المنطقة كثيراً، فطهراني في تلك المناطق. تقاطع كونت، لاله زار، إسلامبول، فردوسي، سعدي، مخبر الدولة، منوشهري. أنا أعرف تلك المناطق جيداً».

كان الوقت مبكراً بحيث لا توجد سيارة أجرة أبداً. توقفت سيارة أوبل موديل ٨٣ متهالكة قربنا. كانت ستأخذنا إلى «فردوسي». جلسنا في الخلف. كانت الشوارع في طريقنا خالية تماماً. كنت أحاول ألا أنظر إلى أبي عسى أن يغيب. ومن المرآة لمحت سائق الأوبل. كان مديري السابق. تبادلنا التحيات والمجاملات وقدمت أبي إليه. ذلك الانحناء الكبير في الظهر والقامة القصيرة التي كانت لديه، لم تظهر بوضوح وهو خلف المقود. لقد وضع شيئاً تحت قدميه حتماً كي

يرتفع ومع هذا كان رأسه بالكاد يصل إلى المقود. قال إنه يقلّ الركاب قبيل الصباح وآخر الليل كل يوم لأن الشوارع خالية تماماً، وأيضاً لأن مخارج الزوجة والعيال كثيرة فعليه أن يعمل جاهداً قدر المستطاع. التفت برأسه نحوي وقال: «كنت قد قلت لك كم أحبه».

قلت «نعم، أتذكر».

سألني عن صحة زوجتي وتابع «أوصل تحياتي لها!»

قلت: «على عيني».

نزلنا في رأس شارع «منوشهري». لم يكن يريد أن يأخذ الأجرة، وكان يجامل. وبعد عناء أعطيناه أجرته.

(٢٤)

دخلنا إلى منوشهري.

سألت: «ألديك عمل هنا؟»

أجاب: «أجل، اتبعني!»

سألت: «قلت أتعرف؟»

ضحك وقال: «أعرف هذه الأنحاء مثل راحة يدي. لا أعرف الأبعد، ولكنني أعرف هذه الأطراف أفضل منك».

كان يتقدم سريعاً وهو أنشط وأسرع من السابق (من كل الأصباح التي كنا نذهب معاً إلى النهر). انتابني الضحك.

قال: «لماذا تضحك؟»

قلت: «يا لك من مخادع! لمدة سنة كاملة كنا جميعنا نتصور أنك مت، ولكنك حيّ فعلاً. أليس كذلك؟»

قال: «من الواضح أنني حيّ، ألا ترى؟»

وصلنا إلى فسحة واسعة وانتهى الشارع. كنا عند حافة الماء. وأمامنا تماماً، في ذلك الجانب من الماء، كانت هناك أشجار قد ارتفعت ومن وراء الأشجار كان ثمة جبل شاهق وذو قمة مدببة وميزته سريعاً: كان جبل «صُفة» خاصتنا.

قلت: «ها! هذا شطنا ذاته!»

قال: «أين سرحت؟ فهذا تقاطع «كونت»، وهذا لاله زار أيضاً. لقد قلت لك أنني أعرف هذه الأنحاء أفضل منك!» ونظر حوله وأضاف: «لدي ذكريات كثيرة هنا، لقد أقمت هنا فترة طويلة».

كانت الشمس ترتفع ـ من جهة يسارنا، من آخر النهر ومن ناحية المستنقع. انعطفنا جهة اليمين ومشينا خطوات عدة إلى الأسفل.

قلت: «في فترة الحرب... الحرب الثانية طبعاً. الحرب العالمية الثانية، لا من هذه الحروب التي تراها هذه الأيام...

«إذاً؟»

«زمان الحرب كان ثمة مقهى.»

«أين؟»

«هنا بالضبط.» ورسم خطاً بمقدمة حذائه على التراب. ثم نزع حذاءه وجوربه وقميصه وبنطاله وجلس على صخرة كانت جانب الخط وقال لي أن أجلس قربه.

نزعت المعطف الذي كنت أرتديه ورميته أرضاً. كان معطف حميد أردت أن أرتديه مرة أخرى ولكنني غيرت رأيي. كان يجب أن أترك نفسي لأبرد، أن أبرد أكثر مهما كان. كان لا يزال ممكناً النظر إلى الشمس، لم يكن لها سطوع يذكر. ولكن ما من شيء يمكن فهمه من الشمس. كانت الشمس شمساً. شمس نهر زاينده. شمس لاله زار... كانت كل الشموس واحدة.

قلت: «إذاً؟»

«كانت هنا بالضبط؛ سلالم عدة تنزل للأسفل. وكان لديه كباب جيد جداً، وكان معروفاً في كل مدينة طهران. وكانت ثمة مطربة بولندية تغني هنا، وكانت تملك صوتاً رائعاً جداً. ربما بسبب صوتها

كان الكباب لذيذاً جداً إلى هذا الحد. في تلك الفترة كنت في طهران وفي مثل سنك تقريباً. كنت جئت إلى طهران من أجل البحث عن عمل. مع أنه كانت هناك أعمال وافرة في أصفهان لكنني ما كنت لأستقر هناك. كنت أكرهها، كنت أكره الخياطة...»

«ماذا عن النهر؟»

«كلما كنت أملك نقوداً كنت أجيء إلى هذا المقهى، آكل كباباً وأستمع إلى غناء هذه البولندية. من كثرة ما كنت أجيء إلى هنا أصبحت صديق البولندية. لم يكن لديها أحد في هذه البلاد. كان الألمان قد قتلوا أباها وأمها وزوجها وأولادها، واستطاعت وحدها الهرب والقدوم إلى إيران. في ذلك الوقت الذي كنت فيه بمثل سنك كان عمرها ثلاثين عاماً، ومن الطراوة كانت تشبه بتلة الأزهار، وكانت تشبه الثلج لبياضها. وأما عن جمالها فحدث ولا حرج؛ لم يكن لها مثيل. كانت امرأة حنونة جداً وعاطفية. لم أكن بحسنها، ولكننا كنا نناسب بعضنا البعض. صحيح أنني كنت أصغر سناً منها وهي كانت أيضاً طويلة جداً مقارنة بالإيرانيات، ولكنني في ذلك الوقت لم أكن مثل الآن؛ كنت مثلي حجمك. كنا بنفس القامة تقريباً، وكانت تعيش وحيدة وبمفردها. كانت تحب بولندا كثيراً ولم تكن تعرف من اللغة الفارسية سوى بضع كلمات. ولكن بهذه الكلمات القليلة أفهمتني كيف كانت تعيش قبل قدومها إلى إيران، وكيف كانت أمورها مع زوجها، وعندما هجم الألمان كيف قاموا بالإبادة. وبهذه الكلمات القليلة قالت لي كل ما أرادت قوله. أرتني صور زوجها وأولادها ووارسو وأماكن أخرى لبولندا. كل الأغاني التي كانت تنشدها كانت تتعلق ببولندا، وأكثر من كل شيء إلى أنهار بولندا. لا أزال أذكر اسم أحد هذه الأنهار، نهر ويسلا الذي يمر من وارسو. وكان كثير المياه بحيث كان يمكن لباخرة أن تعبر خلاله

وكان يصب في البحر. جميع الأنهار هناك تصب في البحر. قلت لها لدينا نهر أيضاً يصب في مستنقع. أردت كثيراً أن آخذها هناك وأريها المكان ولكن ذلك لم يحصل، فقبل أن تتسنى الفرصة انتهت الحرب وعادت إلى بولندا. ما الذي يمكن فعله فهي كانت تحب بولندا وعدت أنا إلى أصفهان أيضاً».

«أكنت تحب أصفهان أيضاً؟»

«لا، كنت أكرهها. ولكن ليس ثمة بولندية أخرى هنا، إذاً لأجل ماذا أبقى في طهران؟»

«يا ليتك ذهبت معها، أو يا ليتها جاءت معك إلى أصفهان».

«لم يكن ممكناً يا عزيزي. هي كانت بولندية وأنا أصفهاني. كانت مطربة وأنا...»

«لم تكن قد صرت خياطاً بعد».

«لا، ولكن أبي كان خياطاً. عندما ذهبت البولندية أنا أيضاً ذهبت إلى أصفهان وصرت خياطاً».

«يا للخسارة!».

«لقد جعلتني الخياطة عجوزاً، لقد صار حسناً أنك فقدت هذا الدكان».

«فقدته؟»

«مجاناً! لقد ألصقوا بك الفتاة كي يأخذوا منك الدكان. لقد خدعوك جيداً، ولكن لابأس. فأنا لم أر أي خير من هذا الدكان، أنت أيضاً لم تكن لترى أي خير».

«ألم أصر عجوزاً؟»

ضحك.

نهضت.

قلت: «لنر، أهذا أنت؟»

ضحك وقال: «أجل، من الواضح أنه أنا».

قلت: «قل الحقيقة!»

قال: «ولم أكذب؟»

سألت: «أنائم أنت أم صاحٍ؟»

قال: «ما هذا السؤال؟ قبل دقيقة سألت أميت أنت أم حيّ والآن تسألني أنائم أنت أم صاحٍ. ما قصدك؟»

قلت: «حسناً، ماذا عني؟ هل أنا نائم أم صاحٍ؟»

قال: «ما أدراني. اسأل نفسك!»

قلت: «لا أعرف».

قال: «كيف؟»

قلت: «دعنا نجرب!»

قال: «لنجرب!»

قلت: «اصفعني على خدي!»

فصفعني على خدي.

لم يتغير الأمر، كنت ما زلت هناك. مع أبي، في شارع لاله زار. عند حافة مياه نهر زايندة. أعلى السلالم التي ربما كانت قبل أربعين سنة تنتهي إلى مقهى تحت الأرض.

قفزت إلى الأعلى وإلى الأسفل. مرة أخرى لم يتغير شيء، كنت هناك. كان أبي موجوداً أيضاً.

بللت نفسي، بذلك الوضع نفسه. كنت أقف هناك ببنطال مبلل وكان أبي يلعب بالحلقة، حلقة البطولة.

مرة أخرى قفزت إلى الأعلى وإلى الأسفل. وشرعت بالركض. كنت أقفز إلى أعلى وإلى الأسفل وأركض. رميت نفسي في الماء. غصت تحت الماء وأصبح سطح الماء أعلى مني. وغصت إلى الأسفل وكلما كنت أغوص إلى الأسفل لم تكن قدماي تصل إلى القعر وكنت أغوص أسفل وأغوص وكلما كنت أغوص كان الماء يصبح دافئاً. وفي ذلك الأسفل العميق كان الماء دافئاً جداً ـ بقدر حرارة جسمي ـ وعندما وصلت أسفل الأسفل كان ثمة صوت غناء امرأة في أذني فقط، صوت غناء غريب من بعيد.

هذا الكتاب

كنا نسبح في نهر (زاينده) بأصفهان مع أبي وعدة شبان لا أذكر كم كان عددهم بالضبط ولا أعرف إلا واحداً منهم فقط - معلم السنة الرابعة الابتدائية كُلتشين. كانت السماء صافية ليلاً وقمر الليلة الرابعة عشر يشع. كنا نحن فقط في الماء ولم يكن هناك أحد غيرنا لا خارج الماء ولا داخله.


ISBN 978-9933350611
9 789933 350611

